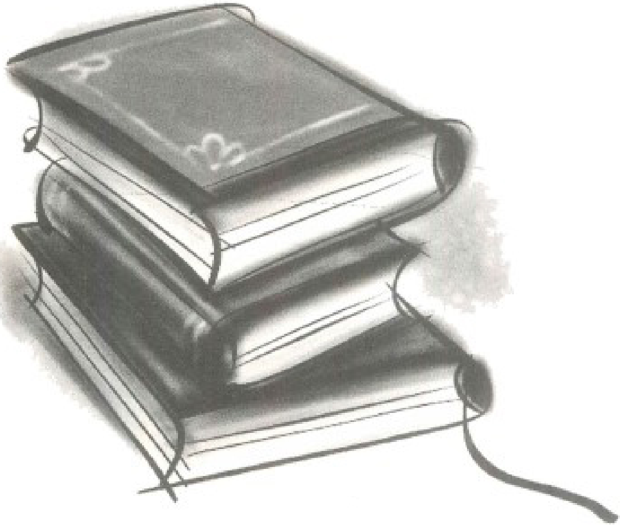
وضاح بن هادي

مُدْمِن كُتُب

ثَمَانُونَ عَامًا بَيْنَ الكُتُبِ



الطبعة الأولى
دار الحضارة للنشر والتوزيع



مُدْمِن كُتُب

ثَمَانُونَ عَامًا بَينَ الكُتُبِ

وضاح بن هادي

ⓒ دار الحضارة للنشر و التوزيع، ١٤٤٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
سلطان، وضاح هادي حسن
مدمن كتب ثمانون عاماً بين الكتب./ وضاح هادي حسن سلطان -
ط٢- الرياض ١٤٤٠هـ
ص ١٨٢؛ ١٤×٢٠سم
ردمك: ٢-٧٦-٨٢٥٣-٦٠٣-٩٧٨
١- الطنطاوي، علي مصطفى محمد، ت ١٤٢٠هـ ٢- الكتب والقراءة أ- العنوان
ديوي ٩٢٢,١ ١٤٤٠/٨٢٤٥

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٨٢٤٥
ردمك: ٢-٧٦-٨٢٥٣-٦٠٣-٩٧٨

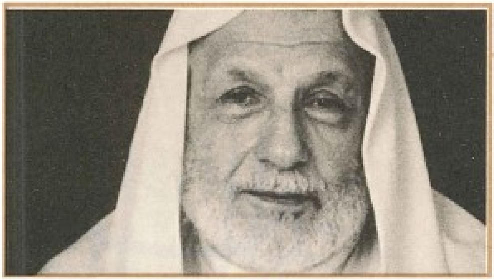
الطبعة الثانية
١٤٤٠هـ/٢٠١٩م

تصميم و إخراج
0500594539
Mustafa.h123 @hotmail.com

دار الحضارة للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011
@daralhadarah 0551523173
زوروا متجر الحضارة: hadarah.store
متجر الحضارة
HADARAH • STORE

بسم الله الرحمن الرحيم

علي الطنطاوي
قارئ من الدرجة الأولى





تمهيـــد

في هذا الكتاب حديثٌ مختلف عن شخصية مختلفة، شخصية عُرفت بصحبة الكتب، والإدمان على المطالعة والقراءة، طالما تحدّثَتْ عن حياتها مع الكتب والمكتبات منذ مراحلها الأولى.

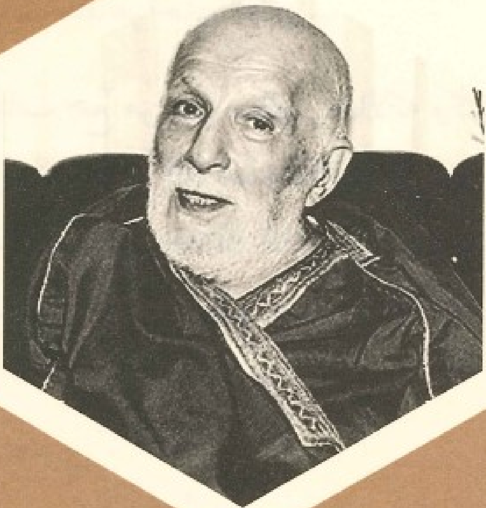
في هذا الكتاب جمعٌ من بين سطور مقالاته وكتبه وذكرياته؛ حول حياته مع القراءة والكتب على مدار ثمانين سنة، نسْتلهم من خلالها الدروس، ونرْسم المنهجية، ونسْتتبع الخُطى لِعَلَمٍ من أعلام الأمة المعاصرين.

إنّه علي الطنطاوي

قارئ المليون .. مُلهم القُرّاء .. عاشق الكتب.. مُدمِن القراءة

وأنا مدمن على المطالعة والقراءة من سبعين سنة

(فصول في الثقافة والأدب، ص ١٠٠)



علاقتي بكتب الطنطاوي

تعلُّقي بكتب وكتابات الأديب الفقيه الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- ليست جديدة، بل هي قديمة تعود لبداية علاقتي مع القراءة والكتب، وذلك إبَّان المرحلة المتوسطة وبداية سنّ الثانوية.

فكان كلُّ كتابٍ أقرؤهُ يدفعني لتناول كتابٍ آخر له،وما ذاك إلاَّ للأسلوب الذي تتمتع به كتب الطنطاوي.

أسلوب سهل ممتنع، واضح عذب، أولُّ كلمة تجرّك لآخر كلمة؛

فيها اللغة، فيها الأدب، فيها التاريخ، فيها الطُرْفة، فيها الموعظة، فيها القصّة، فيها المتعة، فيها فرائد الفوائد.

بل تجد فيها الإشارات التربوية، والتوجيهات الدعوية، والنفائس العلمية

كُلُّ هذا تجده في موطن واحدٍ أحيانًا، بأسلوب يأْسِرُك إليه، ولا يُشتّتك وأنتَ تتنقّلُ بين سطوره وحروفه.

وإنْ شئت دليلًا على ذلك؛ تناول أيّ كتاب من كتبه، اقرأ إن شئت (فصول إسلامية) و(في سبيل الإصلاح) و(فتاوى الطنطاوي) لترى أيّ مفكّر إسلامي يتصدّى لقضايا المسلمين المعاصرة.

اقرأ (أبو بكر الصديق) و(أخبار عمر) و(رجال من التاريخ) و(أعلام الإسلام) لترى أيّ رجل عظيم يؤرّخ لعظماء الأمة.

اقرأ (قصص من التاريخ) و(قصص من الحياة) و(حكايات من التاريخ) لتعْلَم أيّ خيالٍ مبدع ينسجُ من الحدث العارض، أو العبارة التاريخية المقتضبة قصة عبقرية.

اقرأ (من حديث النّفس) و(مع النّاس) و(بغداد) و(دمشق) لتعلم أيّ نَفْسٍ هذه التي حملت أحاسيس كل نَفْس، أفراحًا وأحزانًا وآلامًا، وتأملات.

اقرأ (الذكريات) لترى رجلًا اعترته ظروف اليُتْم والفقر، واعترضت طريقه كل العوائق، فلم تَحُلْ بينه وبين ما يصبو إليه، حتى إذا أدركَ المجد الأدبي والشهرة والعلم الواسع، أخذ يتساءل: ما المجد الأدبي؟ وما الشهرة؟

بل اقرأ ما قاله عن نفسه -رحمه الله- كما في الذكريات؛ إذ يقول: «لا تمنعني فضيلة التواضع من ذِكْر حقيقة معروفة لستُ أدّعيها دعوى، ولكنّي أُقَرِّرُها تقريرًا، هي: أنني اتبعتُ في الكتابة أسلوبًا يكاد يكون جديدًا عُرِفَ بي وعُرِفتُ به. وما كان لأساتذتي الذين قرأتُ عليهم، ولا في الأدباء الذين قرأتُ لهم وأفدتُ منهم مَن له مثله، حتى أُقلّده فيه، وأتبع أثره، وإنْ كان فيهم مَن هو أبلغُ مني، وأعلى درجةً في سُلّم البيان».

وحقٌّ ما قال رحمه الله، فليست هي دعوى مجرّدة من البرهان، بل استطاع الطنطاوي أنْ يكسر بقوّة جمود القلم، ويحْفِر بعمق بَصْمَته التعبيرية على واجهة الكتابة الإبداعية، حتى إنّك لتُميّز أسلوبه عن باقي أقلام الكُتّاب الآخرين.

ولذا يُمكن تصنيف كتابات الطنطاوي ضمن دائرة الأساليب (السهلة الممتنعة) و(القريبة البعيدة)، فهو - أسلوبه - سهلٌ من حيث لغته ومضامينه وأفكاره، وهو في ذات الوقت متعسّر على مَن أرادَ مجاراته أو النسْج على منواله. أيضًا هو أسلوب سهْلٌ استيعابه وفَهْمه وقريبٌ من القارئ، سواء كان مبتدئًا أو متقدّمًا، وهو في ذات الوقت بعيدٌ عن لغة الابتذال والنّمطية.

وما ذاكَ -بلا شكّ- إلا إحدى ثمار موسوعيته القرائية وتعدّدها في شتّى الفنون، مِن سيرة وتاريخ وتراجم وفقه وأدب وسياسة، بل تعدّى ذلك لقراءة واسعة للترجمات العالمية لمختلف النتاجات الأدبية، ممّا كان لها الأثر الملموس في عفوية وتلقائية تلك الكتابات.

لو أحصيت معدّل
الساعات التي كنت
أُطالع فيها لـزادت
على عشر في اليوم



(الذكريات، ج٤/ ص٩١)

مقتطف من حياة الطنطاوي

عليٌّ الطنطاوي، عالمٌ، وأديب، وفقيه، وقاضٍ، وخطيبٌ، ومحدِّث، وثائر على الظلم والظالمين، والفساد والمفسدين، والاستعمار والمستعمرين.

عليٌّ الطنطاوي، عبقريّة فذّة، وموهبةٌ نادرة .. إنه نسيجٌ وحده بين الأعلام، والمفكّرين والأدباء.

وَهَبَ حياته ولسانه وقلمه للدفاع عن الإسلام.

كَتَبَ مئات المقالات، وألّف عشرات الكتب، وألقى ألوف الأحاديث والمحاضرات.

يقول هو عن نفسه -رحمه الله-: «والمطبوعُ ممّا كتبتُ يزيد على ثلاثة عشر ألف صفحة، وإنّ لي أكثر من خمسين كتابًا ما بين رسالة صغيرة وكتاب كبير، وإنّي أحاضر في النوادي من سنة (١٣٤٥هـ)، وأتحدّث في الإذاعات بلا انقطاع من يوم أُنْشِئت محطّة الشرق الأدنى في يافا، قبل الحرب الثانية. . . وكانت

حادثة الساعة، وكنتُ فيها ملءَ الأسماع والأمصار، وكان اسمي فيها على كلِّ لسان. . . ولكن ذلك كله مضى، وسيمضي العمر، ويذهب الجاه والمال، كما ذهب الشباب، وينسى الناس كل ما عملت، ولا يبقى إلا الذي يحمله العبد معه إلى آخرته، وهذا الذي يبقى وكلما سواه يزول».

أبصرَ الطنطاوي النور بدمشق في عام ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م، والده هو الشيخ مصطفى بن أحمد، وكان مدير المدرسة التجاريّة، كما كان أمين الفتوى بدمشق.

تلقّى أوّل دروسه في إحدى كتاتيب دمشق، وانتقل إلى إحدى المدارس الابتدائيّة، ثم غادرها إلى المدرسة الأهليّة، ثم غادرها إلى المدرسة السُّلطانيّة، وانتقل بعد ذلك إلى مكتب عَنْبَر، حيث أكملَ دراسته الثانويّة منه، والتحق بعدها بكلية الحقوق، وفاز بإجازتها.

مارسَ -رحمه الله- التدريسَ في مختلف مراحله في مدارس ومعاهد وجامعات دمشق، وبغداد، وبيروت، والرياض، ومكّة.

وعمِلَ في القضاء، فكان قاضي دمشق الممتاز، ورئيس المحكمة الكبرى، ومُسْتشارًا في محكمة النَّقْض خلال الوحدة مع مصر.

تعلّقَ -رحمه الله- بالقلم، فوجد فيه بابًا عظيمًا من أبواب الجهاد والإصلاح والتغيير، فقد بدأً منذ حداثة سِنِّه، وكانت البداية من جريدة «**فتى العرب**»، ثم جريدة «**ألف باء**»، ثم «**المقتبس**»، إلى أنْ استقرّ في «**الأيّام**»، وفيها وجَدَ مجالًا رحبًا لمهاجمة الانتداب الفرنسي آنذاك.

يقول رحمه الله: «ولقد بلَغَ ما طُبِعَ من كلامي أكثر من عشرة آلاف صفحة، لو نخلْتُها نخلًا، ما وجدتُ فيها -بحمد الله- سطرًا فيه تزلُّف للظالمين، ولا سطرًا فيه إزراء على العربية، ولا سطرًا فيه خروج عن الإسلام ... ولقد كنتُ أكتبُ في الصحف أيام الفرنسيين، فكنتُ أقولُ ما لا يَجرؤ على أكثر منه قائل من الوطنيين، وليست هذه دعوى بلا دليل، بل هي حقيقةٌ دليلها موجود في صحف تلك الأيام، في فتى العرب، والمقتبس، وألف باء، والأيام، واليوم، والنصر، والناقد، والجزيرة».

في عام ١٩٣١م أصدر الطنطاوي مجلة شهرية باسم «**البعث**»، وهي أوّل مجلة إسلامية تصدر في سورية، فصدَرَت منها أعداد ثم احتَجَبَتْ. ثم سافر لمصر؛ تلبيةً لدعوة خاله الأستاذ محبّ الدين الخطيب، فعمِلَ في مجلة «**الزهراء** ومجلة «**الفتح**»، وأسهمَ في تحريرهما.

وفي عام ١٩٦٣م تبدّلت الأحوال، وتغيّرت الوجوه، وانطوت عهود، فآثر -رحمه الله- الإقامة في مكّة المكرمة.. وفي السعودية تفتَّحت له أبواب جديدة للنشاط الإسلامي، فأخذ يُقدّم في الإذاعة برنامجًا يوميًا «مسائل ومشكلات»، وبرنامجًا تلفزيونيًا أسبوعيًا بعنوان: «**نـــور وهـــداية**»، إضافة للبرنامج الرمضاني «**على مائدة الإفطار**». وقد استمرّت هذه البرامج الإذاعية والتلفزيونية أكثر من خمسة وعشرين عامًا.

وهكذا؛ فهو بحقّ مدرسةٌ علمية حافلة، أمدَّ الله في عمره حتى تجاوز التسعين، فأصبح منفردًا بين الناس في علمه وعمره وطبقته، لم يبقَ مِن أقرانه الذين صحبهم وصحبوه، وأحبّهم وأحبّوه، إلا الاثنين

والثلاثة فقط! فكان يحسُّ بالغربة، ولطالما أنشد قول الطغرائي:

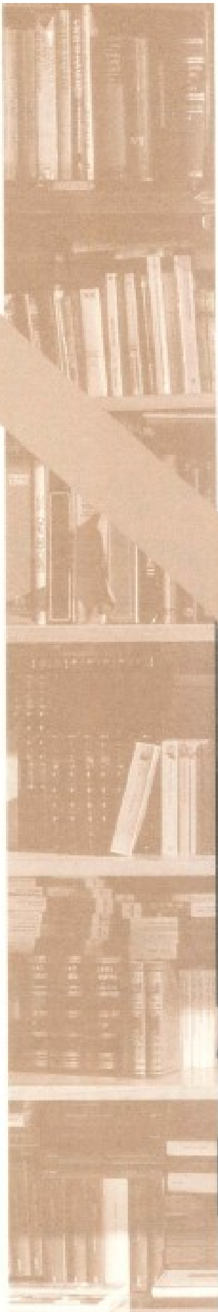
هذا جَزاءُ امرئٍ أقرانُه درَجُوا
من قَبْلِهِ فتمنَّى فُسحةَ الأجلِ

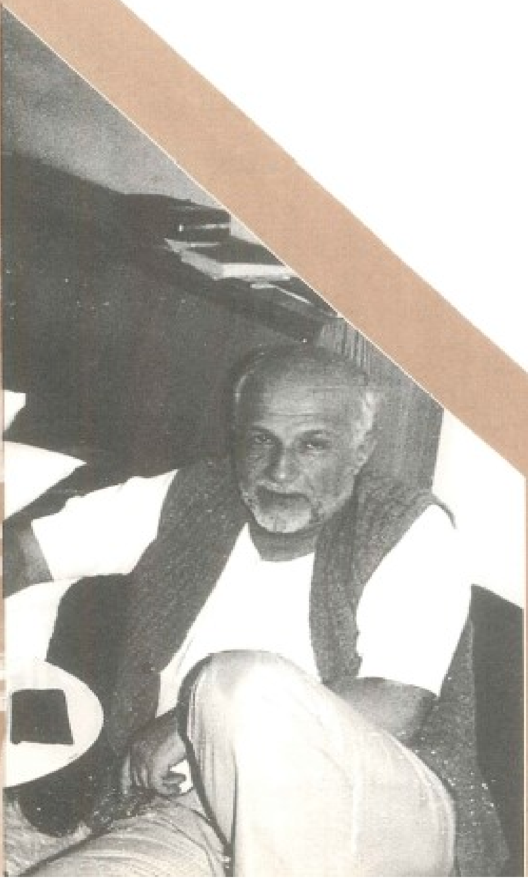
كانت وفاته بعد عشاء يوم الجمعة الثامن عشر من حزيران عام ١٩٩٩م، في قسم العناية المركزة بمستشفى الملك فهد بجدة، ودُفن في مكة في اليوم التالي بعدما صُلّي عليه في الحرم المكي الشريف.

فرحِمَه الله تعالى، وغفر له، وتقبّله في الصالحين من عباده، وأسكنه الفردوس الأعلى مع المقرّبين، وجزاه عن دينه وأمته، وعن العلم والأدب والثقافة والدعوة، خير ما يجزي به الدعاة الصادقين، والعلماء العاملين، والأئمة الهادين المهديين.

شُغْلي الدائم
المطالعة

(الذكريات، ج١/ص ٢٠٧)





إطلالة تعريفية بمكتبة الطنطاوي

يُعدُّ علي الطنطاوي من أكثر أدباء العربية غزارةً في الإنتاج العلمي، وسخاء في العطاء المعرفي، فقدَ كتبَ -رحمه الله- في مجالات عدّة؛ في المقالة، والقصة، والمسرحية، والسِيَر والتراجم، والرحلات، والمذكرات، وغالب بل جُلّ ما هو بين أيدينا من مؤلّفات هي مقالات ومنشورات متفرّقة في الصحف والمجلات.

يقول الأستاذ عبدالغني العطري في كتابه «عبقريات من بلادي»: «كتَبَ الطنطاوي المقالة، والقصّة، والمسرحيّة، وأبدعَ فيها إلى أقصى حدود الإبداع، فقد أوتي صاحبنا موهبةً نادرةً، وأسلوبًا فريدًا، وقدرة لا حدودَ لها على تطويع الكلمات والألفاظ لخدمة أغراضه...».

ومن خلال تأمّل يُمكننا أن نُقسّم كتب الشيخ علي الطنطاوي (تقسيمًا فنيًا)، إلى خمسة أقسام:

- قسم من الآثار القديمة لعلي الطنطاوي، وهي الكتب التي نشرها في مستهل حياته ونفدت فلم يُعِدْ طباعتها.
- وقسم الكتابات الأدبية (الأدبيات).
- وقسم الكتابات الإسلامية (الإسلاميات).
- وقسم الكتابات التاريخية (التاريخيات).
- وقسم السيرة الذاتية (الذكريات).

يحكي الشيخ علي الطنطاوي في ذكرياته أنه -رحمه الله- قد نشر أول مقالة له في صحيفة المقتبس، ولمّا يتمّ السابعة عشرة من عمره، ثم هو بعدها لم يتوقّف على الكتابة حتى آخر سنيّ حياته، فاحسبوا خلال سبعين سنة أمضاها وهو يكتب؟ وقدّروا كم كتب من الصفحات، فهو قد كتب في كل ألوان الكتابة: (المقالة، والقصة القصيرة والطويلة، والمسرحية) حتى قال بعضهم: إنه قد جاوزت كتبه الخمسين كتابًا، وعشرات الرسائل الصغيرة، أما ما لم يُجمع في كُتُب - مما نُشر من مقالات - فيبلغ المئات، منها - كما يقول

مقربوه - مقالات ضاعت أصولها وفُقدت الصحف التي نُشرت فيها أول مرّة، ومنها ما جُمع مؤخرًا ولا زال هناك بقية لها.

القسم الأول: من آثار الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، والتي قلنا إنها كتب نُشرت أولًا ثم نفدت طبعاتها، ولم تُعَدْ طباعتها، من ذلك: كتاب (الهيثميات). وكتاب الهيثميات له قصة طريفة ذكرتها إحدى بناته في حوار صحفي معها، وهو أن الشيخ الطنطاوي كان يتمنى أن يُرزق بولد يحمل اسمه، وكان يود تسميته (هيثم)، وسمّى كتابه باسمه، وكان هو أول كتاب يطبعه في سنة ١٩٣٠، ولمّا يتم الحادية والعشرين من عمره.. إلا أن الله لم يشأ أن يأتيه الولد، فجاءته في الأولى بنت سماها (عنان) على اسمه (علي) واسم زوجته (عائدة)، ثم قرّر أن يُسمّي المولود القادم (عزام)، وشاء الله أن تأتي بنت فسمّاها (بنان)، ثم أصبحت قافية الأسماء (ان) بيان أمان يمان، وبعدها قرر تسمية الولد إن جاء «أبان»، لكن الله شاء له أن يكون أبا

البنات، وكان فخوراً بذلك، ويذكر دائماً أن الله وعد من ينجب ثلاث بنات ويحسن تربيتهن بالجنة. وإذا كان الشيخ حقيقة لم يُنجب أبناء من صلبه، فإنّ له أبناء بررة منتشرين في أنحاء العالم الإسلامي وخارجه، لا ينتمون له بالنسب، ولكن بالفكر والروح.

وكتاب **(الهيثميات)** يضمّ مجموعة من المقالات التي نشرها في تلك السنة في مجلة (فتى العرب، والزهراء، والناقد)، وعددها اثنتا عشرة مقالة، وقد جاء الكتاب في تسعين صفحة من القطع المتوسط.

أمّا أولى الرسائل، فقد كانت بواكير كتاباته (رسائل في سبيل الإصلاح)، نُشرت سنة ١٣٤٨هـ، وهي عبارة عن أربع رسائل، وعندما طُبعت هذه الرسائل وكانت تحمل لغة قوية وحماسة الشباب، جاءت عليها الكثير من الردود، من ذلك كتاب للشيخ أحمد الصابوني (الإفصاح عما في رسائل الإصلاح).

بعدها في السنة التالية صدَرَتْ له سلسلة جديدة بعنوان: **(رسائل سيف الإسلام)**، وهذه أيضًا لها قصة

طريفة، أنهم كانوا مرة في مجلس ووقف عليهم شاب من دعاة البهائية، وكان يدعو لعقيدته، فلمّا أطال، يقول الشيخ: قلتُ له: دعْكَ من هذا الكلام، فالمسألة مسألة مال، فكم تدفع إذا أنا اتبعتك؟ فأخرج ليرتين ذهبيتين، فأخذها الشيخ، فكتب الرسالة الأولى من (رسائل سيف الإسلام) ردّ فيها على البهائية، وكتب على غلافها: طُبعت بنفقة فلان (وذكَر اسم ذاك الشاب)، وهي توزّع مجانًا.

طُبع له بعد ذلك كتاب (بشار بن برد)، ونُشر عام ١٩٣٠م، وهو تدوين لبعض محاضراته التي كان يُلقيها على طلاب الكلية العلمية الوطنية في دمشق في تلك السنة، وهو كتاب يقع في أربع وتسعين صفحة من القطع الصغير.

وبعض الكتب القديمة أُعيدت صياغتها بأسلوب جديد، من ذلك كتاب (عمر بن الخطاب)، الذي نُشر آنذاك في جزأين عام ١٩٣٤م، في نحو ثمانمائة صفحة، أعيدت صياغته ليصبح الكتاب الذي بين يدينا (أخبار عمر).

كذلك كتاب (من التاريخ الإسلامي) الذي نُشر عام ١٩٣٩م، وعُدل ليصبح (قصص من التاريخ).

أخيرًا يتبقى في قائمة الكتب التي من القسم الأول: كتاب (**المحفوظات**)، وكتاب (بلاد العرب)، فكتاب المحفوظات صدر عام ١٩٣٦م، وهو في الأصل كتاب مدرسي، يضمّ نحو ثلاثين درسًا في الأدب.

وأما كتاب (بلاد العرب)، فهو من الآثار القديمة التي فُقدت، ولم يُعثر إلا على أوراق مبعثرة منه، ويظهر أنه عبارة عن رحلاته (للشام والحجاز والعراق).

القسم الثاني: من كتابات الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله؛ قسم (**الأدبيات**)، وتكاد كل كتب الشيخ علي الطنطاوي أن تكون في الأدبيات؛ كون الشيخ أديبًا من الطراز الرفيع، حتى لو كان ذلك البحث أو الموضوع الذي يكتبه تاريخيًا أو علميًا، فكان يصوغه بأسلوب أدبي راق، لكن نحن سنذكر هنا

-في هذا القسم- الكتب التي لم يطبعها طابع آخر

مميز غير الأدب (كالسيرة الذاتية أو الكتابات التاريخية أو الإسلامية).

وغالب هذه الكتب هي مجموعة من المقالات التي نُشرت في ظروف وأزمنة متباينة، وبعضها قد مضى على نشرها (سبعون أو ستون أو خمسون عامًا)، وهي بين يدينا اليوم كما كتبها الشيخ رحمه الله، لم يُزدْ عليها، ولم يُنقص منها شيء.

نعددها إجمالًا: كتاب فِكَر ومباحث، وكتاب صور وخواطر، وكتاب مع الناس، وكتاب هُتاف المجد، وكتاب مقالات في كلمات، وكتاب قصص من الحياة، وكتاب صيد الخاطر (تحقيق وتعليق).

والآن نمرُّ عليها بتعريف موجز واحدًا واحدًا..

كتاب فِكَر ومباحث: كتبَ الشيخ ثلاثة أرباع الكتاب وهو لم يبلغ الثلاثين من عمره، ويقينًا أنك حين تقرأ مقالات الكتاب - التي بلغت خمسًا وعشرين مقالة - لن تظن إلا أن الذي كتبها أستاذ متمرس في أرقى الجامعات.. بلغ عدد صفحات الكتاب ٢١٢ صفحة.

من أقدم مقالات الكتاب وأنفعها؛ مقالة بعنوان: (كيف تكون كاتبًا؟) نُشرت سنة ١٩٣٢م، وقد بسَط في هذه المقالة الطريقة الصحيحة المنهجية للكتابة، وذكر أن الكتابة تمرّ بمراحل أربع: الجمع، والاصطفاء، والترتيب والتصنيف، واختيار الأسلوب.. وفي الكتاب أيضًا مقال قريبٌ من هذا بعنوان: (مقالةٌ في التحليل الأدبي)، وفيها حديث عن الأدب والنقد، وعناصر التحليل الأدبي.

وفي الكتاب أيضًا أبحاث أخرى عميقة؛ كمقال (بين العلم والأدب)، ومقال **(الملَكة والثقافة)**، و**(في النقد)**، و**(الأدب العربي في مدارس العراق)**، و**(الترجمة والتأليف)**، وغير ذلك.

وقد أفردت بعض مقالات هذا الكتاب في رسائل مستقلة، كمقالة **(غزل الفقهاء)**، ومقالة **(من شوارد الشواهد)**.

وأنصح بقراءة مقال مهم في هذا الكتاب بعنوان: **(الحلقة المفقودة)**، والتي هي تشخيص حقيقي للداء

الذي نعيشه اليوم بين النظر للثقافة الإسلامية والثقافة الغربية.

الكتاب الثاني: صور وخواطر. يُعتبر هذا الكتاب أنه قد جمع أطرف وأظرف المقالات التي كتبها الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله. يضمّ الكتاب ثمانية وثلاثين مقالة، يقع الكتاب في ٢٨٦ صفحة، من أبرز هذه المقالات: مقالة **(يا بنتي)**، طُبعت في رسالة صغيرة مفردة، وبلغ ما طُبِع منها قرابة المليون نسخة، وقرينتها مقالة (يا بني). كذلك من مقالات هذا الكتاب التي أُفْردت في رسالة مستقلة: **(حلم في نجد)**، وهو أشبه بديوان جمع فيه الشيخ مما قيل في نجد من الشعر، وما أُنشد فيها من القصائد.

في الكتاب كذلك عدد من المقالات الطريفة التي أكاد أجزم أن أحدًا لا يملك أن يقرأها بغير قهقهة، كمقال: **(أعرابي في الحمام)**، و**(أعرابي في سينما)**، و**(مجانين)**، وفيه مجموعة من أخبار عقلاء المجانين، من مثل خبر الجاحظ الذي نسي كنيته وطفق يسأل

عنها حتى جاءه ابن حلّال بالبشارة بلقياها.

وفيه أيضًا مقالات فلسفية، من مثل مقال: **(السعادة)**، و**(بيني وبين نفسي)**، و**(بين البهائم والوحوش)**.

وفيه مقالات اجتماعية، من مثل مقال: **(تسعة قروش)**، و**(اعرف نفسك)**، و**(في الترام)**.

كتاب مع الناس: وهو كتاب من اسمه يهتم بقضايا الناس وهمومهم ومشكلاتهم، يحوي قرابة أربعين مقالًا اجتماعيًا واقعيًا، وهذه القصص كانت في الأصل حديث أسبوعي للشيخ يُذاع كل يوم جمعة على إذاعة دمشق.

من أبرز مقالات الكتاب، مقالة بعنوان: **(لصوص الوقت)**، يتكلم فيه عن مشكلة الاستهتار بالوقت، والوعد الشرقي والوعد الغربي.

كتاب هُتاف المجد: في هذا الكتاب خمس وثلاثون مقالة، يقع في ٢٢٨ صفحة، وهو أشبه بديوان من

دواوين الحماسة، شنّ في مقالاته حربًا عنيفة على أعداء الأمة المستعمرين؛ على فرنسا في الشام والجزائر، وعلى إنكلترا في مصر وفي فلسطين وفي اليمن، وعلى إيطاليا في ليبيا، وعلى اليهود أيضًا.

كتاب مقالات في كلمات: كما هو واضح من عنوان الكتاب، فهو عبارة عن مقالات صغيرة موجزة، وقد ضمّ الكتاب مئة وثلاث عشرة مقالة، أكثرها لا يجاوز الصفحتين.

وكثير من هذه المقالات تعالج مشكلات اجتماعية، مثل: النظام، الزواج من الأجنبيات، شحّاذون، أكرموا الفلّاحين... وغير ذلك.

وهناك مقالات طريفة كمقال: حمار يسوق سيارته، يقول: «رأيتُ مرة دبًّا يركب الدراجة على المسرح، وسمعت عن كلاب تحمل السِّلال وتغدو على السوق فتشتري الفاكهة، وفي كتاب كليلة ودمنة أخبار من ذلك، ولكن أعجب هذه الأخبار وأبعدها في الإغراب أن يسوق حمار سيارة! وما كنتُ لأصدّق ذلك لولا

أن رأيته أمس بعيني، وكاد يدعسني. لا، لا تظنوا أني أمزح أو أتخيّل، إني لا أصف إلا ما جرى...!» أترككم تستمتعون بقراءة القصة بأنفسكم.

كتاب قصص من الحياة: وفيه سبع وعشرون قصة قصيرة، وفيه يتجلى أسلوب الشيخ علي الطنطاوي في كتابة القصة القصيرة، وهي إحدى ألوان الكتابة الأدبية، وغالب هذه القصص تُعالج مشكلات اجتماعية وأخلاقية.

آخر هذه الكتب: التحقيق والتعليق على كتاب صيد الخاطر لابن الجوزي، حقّقه هو وأخوه ناجي رحمهما الله تعالى. وابن الجوزي معروف فهو من علماء القرن السادس الهجري، وقد كان أديبًا فقيهًا واعظًا مفسّرًا محدثًا، يقول الشيخ علي الطنطاوي عن هذا الكتاب: إنّه من الكتب التي لا أملّ القراءة فيه، حتى كدتُ أحفظه عن ظهر قلب من كثرة مطالعته، ثم يقول: ولا تخلو نظرة فيه من موعظة أتعظ بها، أو فائدة أستفيدها، أو طرفة آنس بها، وفيه فوق ذلك تحليل للنفوس ووصف للمجتمع.

والشيخ علي وضَع للكتاب مقدمة بلغت أربعين صفحة، وعلّق على الكتاب بمئات التعليقات المفيدة.

القسم الثالث من المؤلفات: الإسلاميات. وحقيقة يصعب تصنيف جزء من كتب الشيخ أنها في قسم الإسلاميات وغيرها ليست كذلك، فالأمر ليس كذلك، فكل كتابات الشيخ علي الطنطاوي لا تخلو من نفَس إسلامي، فهو الذي قد عاش الإسلام في قلبه حيًّا نابضًا بالحياة حتى مات رحمه الله، لكن هو تقسيم فني تقريبي.

من كتب الإسلاميات: فصول إسلامية. ويضم اثنتين وثلاثين مقالة، غالبها تدوين لخطب، وبعضٌ خُلاصةٌ لمحاضرات.. منها ما ألقي على منبر جامع دمشق، ومنها ما ألقي في مكة في موسم الحج، وبعض من هذه المحاضرات طُبعت في رسائل منفردة، منها محاضرة: **(المثل الأعلى للشباب المسلم)**، والتي ألقاها في بيروت سنة ١٩٣٧م، وعرَض فيها الإسلام عرضًا واضحًا جليًا مفصّلًا، ثم بيّن ما على الشباب من واجبات علمية واجتماعية وأخلاقية.

وكذلك من الرسائل التي نُشرت منفردة، محاضرة بعنوان: **(موقفنا من الحضارة الغربية)**، وقد بلغت قرابة الثلاثين صفحة، وهي في الأصل محاضرة ألقاها الشيخ ارتجالًا سنة ١٩٧٣م، فسُجّلت ودوّنها بعضهم نقلًا عن الشريط.

وفي الكتاب كثير من المقالات التي تُعدّ مباحث نفيسة، مثل: **(كلمة في الاجتهاد والتقليد)**، و**(حلول قديمة لمشاكل جديدة)** .. وغير ذلك.

كتاب في سبيل الإصلاح: ويضمّ ثلاثًا وثلاثين مقالة، منها مقالة: **(أخلاقنا)**، و**(مناظرة هادئة)**، و(المشكلة الكبرى)، ومنها مقال ختم به كتابه وهو من أروع مقالات الكتاب، يتحدث فيه عن الجهاد بالقلم، عنوانه: **(أين الأقلام؟)**.

كتاب تعريف عام بدين الإسلام: يقع في ١٩٠ صفحة، نُشر أولًا كمقالات في جريدة المدينة السعودية، ثم طُبع ككتاب، وقد وصل عدد طبعاته بالعربية قرابة الثلاثين طبعة، وهو أراد بهذا الكتاب

أن يكون أشبه بالكتاب المختصر البسيط الذي يمكّن الداخل في الإسلام من فهم الدين كلّه في ساعة، كما كان حال الأعرابي الذي يقدم على النبي صلى الله عليه وسلم فيجلس بين يديه ساعة واحدة، فلا يقوم إلا وقد فهم الإسلام وصار من المبشّرين به والداعين له.. ولتأليف الكتاب قصة طريفة ذكرها في مقدمة الكتاب.

كتاب الفتاوى: طُبع في جزأين، وضم قرابة الثلاثمائة مسألة مرتبة على اثنين وعشرين بابًا، وهي في الأصل فتاوى نُشرت في جريدة (الشرق الأوسط) السعودية.

القسم الرابع من تآليف الشيخ علي الطنطاوي: التاريخيات. كان الشيخ -رحمه الله- يُحب القراءة كثيرًا في كتب التاريخ، حتى إنه يقول عن نفسه: إنّه قرأ في شبابه كتب التاريخ الطوال؛ كتاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ المسعودي، والمقدمة لابن خلدون، يقول:

وقرأتُ تاريخ الخلفاء للسيوطي مرات، ونظرتُ في كتب التراجم فقرأتُ منها ما لا أحصيه .. (كما ذكر هذا في كتابه: في إندونيسا، ص١٨٦).

ولذا لم يكن غريبًا أن يتّجه للكتابة في التاريخ، ففي كتابه (رجال من التاريخ) انتقى طائفة من العظماء في تاريخ الإسلام فترجم لهم. يقول في مقدمة الكتاب: «وكنت كلما أعددتُ حديثًا عن رجل من الرجال فُتح لي الباب للكلام عن أقرانه وأمثاله، فحديث عن صلاح الدين يجرّ إلى آخر عن نور الدين، وحديث عن أبي حنيفة يدفعني إلى حديث آخر عن مالك.

ثم يقول: ولو أني استمررتُ أحدّث عن أبطالنا وعظمائنا خمسين سنة، في كل أسبوع حديثًا، وجاء مئة مثلي يصنعون مثل صنعي، لما نفدت أحاديث هؤلاء الأبطال العظماء».

ويقول أيضًا عن منهجه في كتابة السير والتراجم: «وكنتُ إذا أردت الحديث عن رجل قرأتُ كل ما تصل إليه يدي مما كُتب عنه».

له كتاب آخر بعنوان: أعلام التاريخ، وهي سلسلة تتألف من سبعة كتيبات، وكل كتيب يصل عدد صفحاته ما بين الأربعين والستين صفحة، تكلّم فيها عن عبدالرحمن بن عوف، وعبدالله ابن المبارك، والقاضي شُرَيْك، والإمام النووي، وأحمد بن عرفان الشهيد، والإمام محمد بن عبدالوهاب في جزأين.

كتَبَ كتابًا عن: أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد ألّف -رحمه الله- هذا الكتاب وهو في السادسة والعشرين من عمره، والعجب ليس في تأليفه للكتاب، بل هو في ذلك العدد الكبير من المراجع التي رجع إليها هذا الشاب (علي الطنطاوي)، وقد سردها في آخر الكتاب فبلغت مئة مرجع، أكثرها من الكتب الطوال التي تتصرّم في قراءة أمثالها أعمار أمثالنا، وبعض هذه الكتب كان مخطوطًا.

ثم يقول في خاتمة الكتاب: 'ومن ذا الذي يستوفي في كتاب واحد سيرة أبي بكر كلها، وهي أفضل سيرة في الإسلام بعد سيرة سيد العالمين وخاتم النبيين،

وأكملها وأحفلها بكل جميل وجليل؟ ومَنْ ذا يستوفي في كتاب واحد سيرةً يقرؤها الناقد البصير فلا يدري أَنَفْسًا بشرية يرى أم نفسُ ملَك من الملائكة أوْدعها الله جسم إنسان من الناس؟'

ويُعتبر كتابه عن أبي بكر الصديق هو أول كتاب كامل أُلِّف في سيرة الصديق -رضي الله عنه- في عصرنا الحاضر، وهو قد أشار في خاتمة الكتاب إلى هذا الأمر، ومما قاله: إنّ هناك كُتّاب كبار وصغار منهم العقاد في العبقريات، ومحمد حسين هيكل قد أخذوا من الكتاب، دون أن يذكروا كتابي الذي نقلوا عنه. يقول: ولي على ذلك أدلة وبراهين، سامحهم الله'.

كتاب أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر: وهذا الكتاب -كما أشرنا من قبل- أصله في جزأين بعنوان: (عمر بن الخطاب)، حذف منه الشيخ وعدّل وأخرجه في هذا الكتاب الذي بين يدينا، وهو كتاب نفيس جدًا على غرار كتاب أبي بكر الصديق.

وقد خُتم بثلاثين صفحة عن عبدالله بن عمر رضي

الله عنهما، وفيه فصول عن شخصيته وعبادته وزهده وورعه وأقواله وكلماته ... إلى غير ذلك.

الكتاب الخامس: قصص من التاريخ: في هذا الكتاب ثلاث وعشرون قصة، تمتد ما بين أيام الجاهلية وحتى القرن الماضي، وقد أشرنا سابقًا أنّ هذا الكتاب كان أصله قديمًا (من التاريخ الإسلامي).

كتاب حكايات من التاريخ: وهي سلسلة تتألف من سبع حكايات صغيرة، يقع كل منها في بضع وأربعين صفحة من القطع الصغير، وصدرت مؤخرًا عن دار المنارة في غلاف واحد، وقد كتبها الشيخ بأسلوب مبسّط وسهل جدًّا للصغار. والناشر (دار الفكر) صنّفها أنها موجّهة لسن الناشئة من (١٠ - ١٢ سنة)، وإن كان في ظني هي مناسبة أيضًا لطالب المتوسطة والثانوية.

وهي سبع: جابر عثرات الكرام، والمجرم ومدير الشرطة، والتاجر القائد، والتاجر الخراساني، وقصة

الأخوين، ووزارة بعنقود عنب، وابن الوزير.

له كتابان آخران ضمن التاريخيات وهي قريبة من بعضها؛ الأول بعنوان: (دمشق)، والاسم الكامل له: (دمشق: صور من جمالها، وعبر من نضالها)، والكتاب يوحي لمضمونه من عنوانه، فهي مقالات عن دمشق، وفي الكتاب صور قديمة لمدينة دمشق.

والكتاب الثاني بعنوان: (الجامع الأموي)، والجامع الأموي في دمشق أيضًا (وصْفٌ وتاريخ)، وهو تقريبًا من أصغر كتب الشيخ حجمًا، يقع في تسعين صفحة.

يقول في مقدمة الكتاب في طبعته الثانية: وفي هذا الكتاب - على قِصَره - وصفًا وافيًا وتاريخيًا شافيًا لمن أراد أن يقف على الجامع الأموي وصفًا وتاريخًا، من حين أن أُنشئ إلى زماننا الحاضر.

أما القسم الأخير من مؤلفات الشيخ علي الطنطاوي، وهو أجملها وأمتعها: قسم الذكريات والسيرة الذاتية. والشيخ -رحمه الله- فتح عينيه على الدنيا من يوم لم تكن في بلاد العرب والمسلمين لا سيارة ولا طيارة ولا

حتى كهرباء، ورحل من الدنيا وقد صَعَد بعضُ بني البشر إلى سطح القمر.

عاش -رحمه الله- كما مرّ معنا حِقَبًا متباينة، أدرك الفرنسيون وهم يقتسمون الشام مع الإنجليز، ثم عاش حتى رآهم يتركونها ويخرجون منها.

أدرك ولادة الشيوعية، وأدرك وفاتها.

أدرك ولادة دول، وأدرك وفـاة دول.

وكتب الذكريات التي سطّرها الشيخ هي على النحو التالي: كتاب له بعنوان: **(من حديث النفس)**، وكتاب: **(من نفحات الحرم)**، وكتاب: **(بغداد مشاهد وذكريات)**، وكتاب: **(في إندونيسيا)**، وآخرها **الذكريات الشهيرة التي صدرت في ثمانية أجزاء**، ولحقها مؤخرًا الجزء التاسع للفهارس والصور، وهي تُعدّ من أعاجيب كتب الذكريات في هذا الزمان، وهي شاهدة بشهادة خبير مطّلع على أحداث القرن.

كتاب من حديث النفس: هو عبارة عن أشتات من

الذكريات؛ من ذكريات الطفولة المبكرة، ثم ذكريات الشباب، ثم ذكريات بدايات التدريس حين تولّى تدريس المرحلة الابتدائية. وفي الكتاب أيضًا مقالات يصف فيها علي الطنطاوي نفْسه ويُعبّر عن عواطفه وانفعالاته، كما في مقال: **(زفرة)**، و**(وحدة)**، و**(وقفة على طلل)**.. والكتاب يحوي ستاً وثلاثين مقالة في ٢٣٦ صفحة.

كتاب من نفحات الحرم: يضمّ الكتاب نوعين من المقالات؛ الأولى: تلك التي كتبها الشيخ بعد عودته من رحلة الحجاز الشهيرة، وهي رحلة ليست ممتعة من الناحية الأدبية السردية فحسب، بل فيها أحداث ومعلومات لا تكاد تجدها في بطون كتب الرحلات، وفيها وصف للطريق من دمشق لمكة، وفيها وصف لمكة والمدينة وحياة الناس وعاداتهم فيها في تلك الأيام. والثانية: مقالات ذات علاقة بالحرم والحج.

الكتاب الثالث: بغداد مشاهد وذكريات، ويضمّ تسع عشرة مقالة، وسطّر فيه رحلته للعراق التي

كانت عام ١٩٣٦م، وقد ذهب الشيخ للعراق مدرسًا في الثانوية المركزية في بغداد، ونُقل تعسفًا إلى كركوك في أقصى الشمال، ثم إلى البصرة في أقصى الجنوب، وهكذا بقي في العراق حتى سنة ١٩٣٩م، وقد تركت تلك الفترة في نفسه ذكريات لم ينْسها.

الكتاب الرابع: صورة من الشرق (في إندونيسيا)، ونَشَر فيه قصص وأحداث ليس فقط مرت به في إندونيسيا وحدها، بل بدأها من بداية خروجه من دمشق إلى بغداد، ثم إلى باكستان، ثم إلى جاكرتا، واستمرت هذه الرحلة قرابة الثمانية أشهر كما ذكر رحمه الله. كان غرضها الرئيس هو تنفيذ لتوصية المؤتمر الخاص بنكبة فلسطين، فرُشِّح -رحمه الله- لرئاسة لجنة للدعاية للقضية الفلسطينية اسمها: (لجنة الإنعاش الروحي)، وأخذ يطوف العالم الإسلامي يُعرّف بهذه القضية (قضية فلسطين).

آخر الكتب: الذكريات. وكان يود تسميتها قبل أن تُنشر (ذكريات نصف قرن)، وهي أغلى ما يملك -رحمه الله- كما كان يقول.

يقول في مقدمة أول جزء من هذه الذكريات: «هذه ذكرياتي؛ حملتها طول حياتي، وكنت أعدّها أغلى مقتنياتي، لأجد فيها يومًا نفسي وأسترجع أمسي».

وهو يتأسّف أن كتابة هذه الذكريات لم تكن إلا بعد أن أدركه الكِبَر، وضعُفت الذاكرة، فهو يقول: «هذه ذكريات وليست مذكّرات؛ فالمذكَّرات تكون متسلسلة مرتبة، تمدّها وثائق مُعدّة وأوراق مكتوبة، وذاكرة غضة قوية، وأنا رجلٌ قد أدركه الكبر، فكلّت الذاكرة وتسرّب إلى مكامنها النسيان».

وهو حقيقة لم يَسِرْ على خطة واضحة ونظام محدد في الكتابة، فهو يُصارح القُرّاء فيقول: «بدأتُ كتابة لذكريات وليس في ذهني خطة أسير عليها ولا طريقة أسلكها، وأصدق القارئ أني شرعتُ فيها شبه المكره عليها؛ أكتبُ الحلقة ولا أعرفُ ما يأتي بعدها، فجاءت غريبة عن أساليب المذكرات وطرائق المؤرّخين».

ومع ذلك جاءت هذه الذكريات - كما لم يكن يتوقع الشيخ نفسه رحمه الله - في مئتين وأربعين

حلقة، يقول في خاتمة الجزء الثامن من الذكريات: «لمّا شرعتُ أكتبُ هذه الذكريات ما كنتُ أُقدّر أن تبلغ أربعاً وعشرين حلقة، فوفّق الله حتى صارت مئتين وأربعين، وما استنفدتُ كلَّ ما عندي، ولا أفرغتُ كل ما في ذهني، فقد جاءت على نمط عجيب، ما سرْتُ فيها على الطريق المعروف، ولا اتبعتُ فيها الأسلوب المألوف».. إلخ ما قال رحمه الله.

ختمها بتهميش في أسفل الصفحة الأخيرة: مكة المكرمة، يوم ذكرى مولدي، ٢٣ جمادى الأولى، الذي يوافق هذه السنة غرة سنة ١٩٨٩م.

وللمزيد الاطلاع على كتاب (أديب الفقهاء وفقيه الأدباء) لمجاهد مأمون إيرانية.

لا أكاد أشبع من الطعام
ولا من القراءة ولا من النظر
في هذا الفضاء الفسيح

(من حديث الذكريات، ص ٢٢٠)



قيمة الكتاب في حياة الطنطاوي

في كتاب «هكذا ربّانا جدّي» لحفيدة الطنطاوي عابدة العظْم تقول: «ما رأيتُ جدّي يُحبُّ شيئًا حبَّه للكتب، نشأ على ذلك صغيرًا وكبُرَ عليه حتى صار بعضًا مِن طِباعه الأصيلة وواحدًا من حاجاته الأساسية، فلا يستغني عن الكتاب إلا بقدر ما يستغني عن الطعام والشراب والمنام وسواها مِن أساسيات الحياة.

حدّثَ هو عن نفْسه كيف توفِّي والده وعليه ديون فبيعَ كُلُّ ما في الدار وفاءً لها إلا الكتب وقَفَ جدّي دون بيعها؛ هانَ عليه فقْدُ الفِراش والمتاع ولم يحتمل فقْد الكتاب.

ولمّا اضطرته الظروف إلى مفارقة بلده وتركَ بيته لم يسأل عن شيءٍ مِن متاعٍ أو مالٍ غيرَ كتبه، فكتبَ متحسِّرًا: «دُنيا طالب العلمِ مكتبته، ومكتبتي في الشام مودعة في خمسة وثمانين صندوقًا لم تُفْتح من إحدى

عشرة سنة، ولستُ أدري أأكلتها الأَرَضة أمْ هي سالمة لا تزال؟ وأنا هنا محروم منها لا أستطيع الوصول إليها».

تتابع عابدة: كانت سعادة جدّي في اقتناء الكتب، وامتلاك نفائسها، فكان دائم الاطلاع على عالم الكتب يسأل عن القديم والجديد فيها، ويَطلبُ مِن كلِّ مَن له صلة بالكتاب أنْ يُزوِّده بكل طريف ومفيد، فإذا وجَدَ كتابًا جديدًا مفيدًا أو خفيفًا طريفًا لمْ يتردّد في طلب عدد مِن النسخ لتوزيعها على بيوت بناته كافّة.

لقد قال جدّي دائمًا إنّه كان يقرأ في كل يوم ساعات، فإذا أَقلَّ القراءةَ يومًا قرَأَ مئة صفحة، وإنّي إذْ أُحاول استرجاع صورته يوم كنتُ صغيرة وكيف كان حين نشأت لأتخيّلَه جالسًا دومًا في تلك الزاوية المخصّصة له واضعًا نظارته وممسكًا بواحد من كتبه، وقد حفّت به أكوامٌ مِن الكتب والمجلات والجرائد والأوراق مجمّعة على غير نظام تنتظر دورَها للقراءة أو الفرْز والتوزيع.

تلكَ كانت «العدوى» الأولى التي نشرَها جدّي بين أهل بيته؛ حُبُّ الكتب، حتى صارَ ذلك طبعًا لازمًا

لأكثرهم، فيحرصون على اقتناء الكتب وزيادتها كما يقتني الناس أنواع الأثاث ويتفاضلون فيه، حتى كان في أكثر بيوت بناته وأسباطه غرفةٌ خاصّة للكتب والمراجع.

أمّا «العدوى الثانية» فهي: احترام الكتاب ورعايته والعناية به والحرص عليه.

لقد كان التعامل مع الكتب عند جدّي علمًا لا بدّ مِن إتقانه، فالكتاب لا يُشترى كلّ يوم، إنّما هي نسخة واحدة وتبقى إلى آخر العمر، وقد يرِثُها الأبناء مِن بعد. لذلك كان يُعلّمنا طريقة تناول الكتاب عن الرفّ بحيث لا يُفسد غلافه؛ فنضعُ السبّابة على الطرف العلويّ مِن حرْفه الخلفيّ ونُميله برفق حتى نتمكّن مِن إمساكه بيدنا، ثم نسْحبه. أمّا تقليب الصفحات فإنّ له فنًّا آخر: فكان يمْنعنا منعًا صارمًا مِن لعْق أصابعنا قبل قَلْب الصفحة (خوفًا على الورق مِن الفساد بسبب البلَل) أو الضغط على الورقة بشدّة في زاويتها السُّفْلية اليسرى لقلْبها؛ (لأنّ ذلك يُشوّه الورقة وقد يتسبّب في تمزّق طرفها).

أمّا الأسلوب الصحيح للتقليب فهو جذْبُ الورقة بسبّابة اليد اليسرى (بمساعدة الإبهام والوسطى) مِن الزاوية العلوية اليسرى للكتاب، جذبًا إلى الأعلى لا ضغطًا إلى الأسفل! ثم كان يحظر علينا أنْ نضعَ داخل الكتاب قلم رصاص أو كتابًا آخر أو أيّ شيء يزيد سُمْكه عن ورقة، فضلًا عن قلْب الكتاب وهو مفتوح؛ لأنّ ذلك يفسّخ كعبه ويُفرّق ملازمه.

وما وجدتُ جدّي - طوال معرفتي به - يحْرِص على شيءٍ حرْصَه على كتبه، فهو لا يسمح بخروج الكتاب خارج باب بيته إلا بظروف استثنائية، وبإذن رسميّ، مشترطًا مدّة محدّدة غير طويلة لإعادة الكتاب إليه، ضنًّا به وخوفًا عليه، ثم هو يسأل المستعير عنه كُلّما قابله أو هاتفه، حتى يقول: ليتني لم أستعِرْ كتابًا مِن الشيخ، ولعلّه لا يعود إلى طلب كتابٍ بعدها».

وقد أفادني -رحمه الله- من مطالعته الموسوعية، حيث كان يدلّني على النافع والمفيد من الكتب، وقد أرشدني إلى بعض الكتب التي تُغني من يقرؤها عن

الكثير من أمثالها، ومنها: «**فجر الإسلام**» لأحمد أمين، و«**نور اليقين**» للخضري، و«**تاريخ الخلفاء**» للسيوطي، و«**الجامع الصغير**» للسيوطي. وكان يهتّم كثيرًا بالأسلوب الأدبي الجيد وسلامة اللغة، ويرى أنّ قراءة كتب المنفلوطي والرافعي والمازني وأمثالها تُساعد كثيرًا على تحسين السليقة وتقوية اللغة.

وقد علّمني فنّ القراءة؛ أي الطريقة الصحيحة لقراءة أي كتاب:

١ - أقرأ العنوان جيدًا (وإنْ كان العنوان لا يُعبّر أحيانًا عن مضمون الكتاب بسبب سوء الاختيار أو تشابه الموضوعات).

٢- ثم أنتبه لاسم المؤلف، فلا أقرأ لأيٍّ كان؛ لأن اتجاهات الكاتب وقناعاته في الحياة سوف تظهر - على الأغلب - في كتابه، وربما كان مفسدًا مدلسًا. وقد سمّى لنا بعضًا من أولئك الكتّاب ونهانا عن القراءة لهم قبل أنْ يشتدّ عودنا؛ (لما يَعرف من انحرافهم وفساد عقيدتهم، مثل جورجي زيدان في

رواياته المسمّاة «**روايات تاريخ الإسلام**»؛ خوفًا من أنْ نَعْجَز عن التمييز بين الصحيح والخطأ.

٣- ثم أقرأ المقدمة بعمق وتفصيل؛ إذْ هي التي تُبيّن الغرض من الكتاب، وتوضّح محتواه، وتشرح الطريقة التي عرَض بها المؤلف الأفكار والأساس الذي قام عليه تقسيمه للفصول.

٤- ثم أستعرض فهرس الكتاب فأستوعب محتواه وأُحيط بمادته بنظرة سريعة شاملة.

٥- وأخيرًا أقرأ الخاتمة (إنْ وُجدت) بعمق؛ لأنّ فيها زبدة الموضوع ومغزى الكتاب.

هذا الأسلوب يَمنح القارئ فكرة واضحة عن مضمون الكتاب وأسلوبه في زمن وجيز، فإنْ أحبَّه أكمَلَه وإنْ رَغِبَ عنه تحوّل إلى سواه، كما أنّه يُوسّع القاعدة الثقافية للقارئ الذي يعتاد النظر في كل كتاب تَقع عليه يداه فتتراكم لديه -مع مرور الأيام- معلومات عامة عن كثير من الكتب وكثير من الكُتّاب.

وتقول عابدة كما في كتابها الآخر «**جدّي علي الطنطاوي كما عرفته**»: بعدما استعرضت العوامل التي سَاهَمَت في نجاح جدّي، سوف أُسِرّ لكم بالسبب الرئيس في تميّزه: فكّرتُ بالسبب الذي حبّب الناسَ بعلي الطنطاوي وقرّبهم منه، فما السرّ في نجاحه وهو معتزل في بيته لا يُحبّ لقاء الناس ولا الاختلاط بهم، ولا يكاد يُعاشر إلا المقرّبين منه؟ كيف استطاع الوصول إلى قلوب الناس بهذه السهولة؟

لا أُنكر تميّز شخصية جدّي الأصلية، فذكاؤه الفطري وأسلوبه الحلو وحِسّ الفكاهة لديه ساهمت في نجاحه، ولكن - وبرأيي - يوجد «سرّ» ساهم مساهمة أساسية في نجاحه، وهو كثرة اطّلاعه وتنوّع ثقافته. لذلك أقول للمربين: المواهب الفطرية لا تكفي وحدها للنجاح، والعمل الكسبي له أثر كبير بالتفوق والإبداع.

عَشِقَ علي الطنطاوي الكتب وحَرِصَ على القراءة، فأعطته «القراءة» مثلما أخذت منه، وكانت مكافأته

الأولى: أنْ صار أديبًا، ومكافأته الثانية: أنْ أراد الله به خيرًا ففقّهه في الدين وعلّمه التأويل، فجمَعَ له الخير كلّه. وجائزته الثالثة: أنّه صار بعيد النظَر، واسع الأُفق، حكيمًا يَفهم الناس ويحلّ المشكلات، فأدار حياته الأسرية بنجاح وبشكل حلو ومتوازن، وهذا أثمن ما حَصَل عليه، وهو ما أُحاول إيصاله للناس كثمرة من ثمار القراءة ولا يتفهمونه!

ولجدّي مكتبة كبيرة حافلة خصّص لها غرفة منزوية بعيدة واعتبرها أثمَنَ أملاكه، وحسْبُه أنّه كان زاهدًا في الدنيا لا يَكاد يشتري من متاعها شيئًا، ولا يستهويه عرض من عروضها إلا الكتاب، فهو أكثر ما يُقدّره ويحترمه، وإنْ حَصَل على كتاب جديد مفيد شعر وكأنه حاز الدنيا وما فيها.

وقد عَمِلَ جدّي بالتدريس وانتقل للقضاء وهو زوج وأب ومسؤول عن أسرة كبيرة، ومحدِّث في الإذاعة وخطيب جمعة، وكل ذلك لم يثْنه عن القراءة، ويقول الناس اليوم: لا وقت للقراءة! ولا يعرفون أنّ

القراءة هي التي تُعطي الوقت! ولا تَعْجَبوا، فالإنسان يتعلّم من تجاربه، وهذا حَقّ، ولكن حياة الإنسان قصيرة ولا يُمكنه تجربة كلّ شيء ليتعلّم، وأفضل طريقة للتعلّم هي الاستفادة من تجارب الآخرين، والقراءة توفّر هذا.

قرأ علي الطنطاوي في كلّ علم وفن، وأكثر ما استهواه قراءة مذكرات القادة والمشهورين في التاريخ، وأَحَب كتب الأدب، وأذكر أنّه كان كثير الاستشهاد بأشعار وقصص من كتاب «الأغاني»، وقد قرأه كلّه ثلاث مرات واستفاد منه في الأدب واللغة (كما قال في إحدى مقالاته عنه)، وأَحَب كتب التاريخ، وكان من أَحبِّها إليه «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، كان بين يديه دائمًا فلا يَملّ من قراءته.

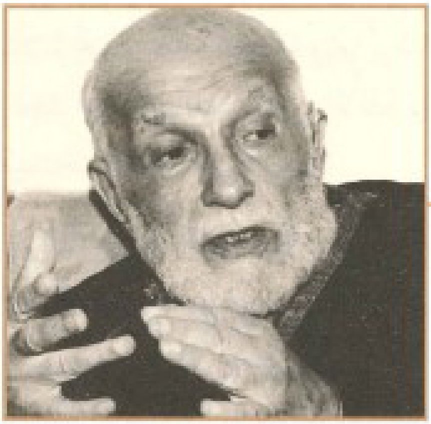
وجوابًا على سؤال: كيف حاول جدُّك أنْ يُحبّب إليك القراءة؟

لقد حاول جدّي نقل «حبّ الكتب» إلينا جميعًا بشتّى الوسائل، فقصَّ علينا تجربته مع القراءة وما وصَلَ إليه من الفقه والعلم بسببهما، وحبّب إلينا المطالعة وأهدانا الكتب، وعلّمنا كيف نقرأ وماذا نقرأ، وإذا سألنا سؤالًا في اللغة مثلًا لمْ يُجبْ عليه (أحيانًا) وإنّما يُرشدنا إلى المكان الذي نجد فيه الجواب؛ ليُنمّي الأُلفة بيننا وبين الكتاب، وليمنحنا القدرة على البحث.

وكان يسألُنا في التاريخ أو الفقه مثلًا، ويُثني على مَن يأتيه بالجواب الصحيح ويرفع من قدره، فإنْ عجزنا عن الجواب أَرْشَدنا إلى بعض الكتب، ثم يُعاود السؤال بعد مدّة ليرى القارئ فينا، الأمر الذي جعلني أُسارع إلى قراءة تلك الكتب (التي أشار إليها)؛ لأُجيب عن أسئلته وأحوز على رضاه. وكم قرأتُ في «تاريخ الخلفاء»، وفي «الفقه على المذاهب الأربعة»، وفي «فجر الإسلام» وفي غيرها ... وكم حصلْتُ على رضا جدّي وثنائه!

فأنا اليوم، وأنا بالأمس، كما كنتُ في الصِفَر؛ أمضي يومي أكثره في الدار أقرأ، وربما مرّ عليّ يوم أقرأ فيـه ثلاثمئة صفحة.

(الذكريات، ج١/ ص ٢٦١)





علي الطنطاوي بقلم علي الطنطاوي

... كان معروفًا بالشذوذ والخروج عن المألوف، لا يُبالي - إذا اتجه له الرأي - ما يقول فيه الناس، ولا يحفل - إذا أزْمع الأمر - نَهْيَ ناهٍ ولا نصيحةَ ناصحٍ. وكان يعرف ذلك من نفسه ولا يُغضبه أنْ يوصف به، بل كثيرًا ما سمعناه يتحدّث به ويُطيل الحديث، يجد في كشف دخيلته للناس لذّة وارتياحًا، كأنما هو يُلقي عن عاتقه حملًا ثقيلًا.

يجمع في نفسه المتناقضات، فبينما هو منغمس في لج الحياة المضطربة المائجة يفزع من الوحدة، ويكره الهدوء، ويركب متن المغامرات في الأدب وفي السياسة، يخطب في المجامع ويناقش في الصحف، وبينما هو مطمئن إلى هذه الحياة مقبل عليها، إذا به قد استولت على نفسه «فكرة صوفية»، فغمرت الكآبة روحه، وفاض اليأس على قلبه، وأحس الحاجة إلى

الفرار من الناس والرغبة في العزلة المنقطعة، وأصبح يكره أنْ يرى أمسَّ أصحابه به وأدناهم إلى قلبه، ويحب الحياة الساكنة الهادئة، ويجد الأُنس في حديث قلبه ومناجاة ربه.

وهو أسرع الناس إلى المزاح والفكاهة، وأضيقهم بمجالس الجدّ، وأبعدهم عن تكلُّف الوقار واتباع «الرسميّات»؛ فلا يكون في مجلس إلا حرّكه بحديثه وإشاراته ونُكاته، وأفاض عليه روح المرح والودَّ الخالص. ولكن موجة من الحزن المفاجئ قد تطغى على قلبه في أشدّ الساعات سرورًا وأكثر المجالس طربًا، فإذا هو حزين كئيب، قد ضاق بالناس وتبرّم بمزاحهم وهزلهم، وغدا راغبًا في الجِدّ محبًا للوقار، متلبّسًا بالصرامة والحزم، منصرفًا عما كان فيه منذ لحظة واحدة؛ لا يعرف الناسُ (ولا يعرف هو) ماذا أصابه فنقله من حال إلى حال.

تغْلُب عليه العاطفة حينًا فيمسي أرقَّ الناس شعورًا وأرهفهم حسًّا، يرى المشهد الجميل من مشاهد

الكون، أو يسمع النغمة العذبة الشجية، أو يقرأ البيت الغزلي الرقيق أو القصة العاطفية المحزنة، فتوقظ في نفسه عالمًا من الذكريات، فيخفق لها قلبه ويهفو لها فؤاده، ويحس بها تلذغه لذغًا، وتفيض على نفسه شعورًا طاغيًا بحب مُبهم غامض لا يجد طريقًا ينبعث منه، فيزلزل كيانه زلزلة كما يزلزل البركانُ الأرضَ إنْ لم يجد فوّهة يندفع منها، ويدعه شخصًا متهافتًا، لا يقوم إلا على أعواد من العواطف الرقيقة المتداعية.

ويُسيطر عليه العقل أحيانًا فيحتقر العاطفة ويدعو إلى أدب قويّ نافذ، ويسخر من الحب ويهزأ بالعاشقين، ويزدري هذه القصص وهذه الأشعار التي كان يرقص لها قلبه وتفيض لها مدامعه ... ويُقبل على العمل بهمّة عجيبة ورغبة قوية، فيُطالع ويكتب، ويعمل كآلة دائبة الحركة لا يأخذه ضعف ولا خور، ثم يشعر فجأة بكراهية العمل والنفور من المطالعة الجدّية والعزوف عن الكتابة والتأليف، ويستولي عليه كسل عقلي عجيب لا يطيق معه عملًا من الأعمال!

كان يعمل في مدرسة ابتدائية، نزلوا به إليها، فلا يكلّفه العمل فيها جهدًا ولا مشقة ولا يشغل من تفكيره شيئًا؛ فكان يستمتع بوقته ونفسه كما يشاء، ويشتغل بالأدب للّذة والمتعة الفنّية، فيقرأ ما طابت له القراءة، ويكتب ما رغب في الكتابة، ويؤلّف ما مال إلى التأليف، فكره هذه الحياة وَهوي الحياة العقلية المنظّمة التي تضطره إلى نوع من الدرس بعينه، وتجبره على نوع من الكتابة بذاتها.

كان يعيش في أسرة رفرف عليها الحبّ وسادها الإخلاص وأسبَغَ عليها ثوب السعادة، بين إخوة له ما رأى الراؤون مثلهم في ذكائهم واستقامتهم وطاعتهم إيّاه، وحبّهم له وحرصهم على رضاه، وصحابة له ما فيهم إلا أريب طيّب النفس صادق الودّ صافي السريرة حسَن السيرة، وكان له في بلده منزلة يحسده عليها مَن هو أكبر منه سنًا وجاهًا وأكثر علمًا ومالاً، فملَّ هذه الحياة ومال إلى الهجرة وانتجاع أفق جديد، فأزمع السفر إلى بغداد، تاركًا عمله في وزارة معارف الشام،

عاصيًا الناصحين والناهين من الأهل والأصحاب.

وجاء إلى بغداد، فلم يكد يُلقي فيها رَحْلَه حتى عراه اكتئاب وملل لا يعرف له سببًا، وأحسّ الحنين يحزّ في قلبه والشوق يُدمي فؤاده، وانتابته إحدى نوباته العاطفية فلم تدع في رأسه إلا فكرة واحدة، هي الرغبة في العودة، لا يُبالي معها ماذا قيل عنه وماذا ضاع منه، ولكنه لم يكد يستجيب لها حتى أدركه مدَدٌ من عقله، فصحا من نوبته وتخلّ من عاطفته، فآثر البقاء وأقبل على العمل، فلم يمضِ عليه يوم حتى سمع مَن يُنشد:

فيمَ الإقامةُ بالزوراء؟ لا سَكَنى بها، ولا ناقتي فيها ولا جملي

فنشطت عاطفته المكبوتة من عقالها، تصرخ في وجه العقل أن: فيمَ الإقامة بالزوراء؟ فغُلب العقل واستخذى، وذهب يستعدّ لمعركة أخرى.

كان يأمل أنْ يجد لذّة في تدريس الأدب، ولكنه لم يكد يُمارسه حتى اجتواه وملّه، وعلم أن الاشتغال بالأدب للّذة لا يستقيم مع هذا العمل النظامي المستمرّ. إنه يصبح وفي رأسه فكرة يُريد أنْ يكتب فيها فصلًا، فيُدركه وقت المدرسة، فيذهب وتذهب الفكرة في طريقها. أو يصبح وهو يكره الكلام ويميل إلى الصمت، يُحب أنْ يُفكّر فيُطيل التفكير ويحلم فيغرق في الأحلام، فتراه مُلزمًا بالكلام خمس ساعات أو ستًا، وهو يُحب الشاعر أو الكاتب ويميل إليه فيُكرهه المنهج على درس شاعر آخر لا يحبه ولا يفهم أدبه، ويضطره الطلاب إلى إطالة الحديث حين ينبغي له الإيجاز أو إيجازه حيث تُطلب الإطالة، أو لا يفهمونه ولا يُسايرونه، فيهبط من سماء متعته الأدبية ليمشي مع أفهامهم وعقولهم ...

إنّه رجل شاذ الطباع متناقض العواطف؛ يشتاق إلى بلده، فإذا عاد نَدِمَ على العودة، وإنْ قام هاجَه الشوقُ، وإنْ لجأ إلى عقله ثارت عاطفته، وإنْ اتّبع عاطفته أبى عقله...

لا يفهمه أحد، ولا يفهم هو نفسَه ... إنّه أديب!

(من مقال: صورة المؤلف بقلمه، كتاب: من حديث النفس).

الفصل الأول

حياتُه بين الكتب



لذّة القراءة

ولقد جرّبت اللذائذ كلها فما وجدت أمتع من الخلوة بكتاب، وإذا كان للناس ميولٌ وكانت لهم رغبات، فإنّ الميل إلى المطالعة والرغبة فيها هي أفضلها.

(فصولٌ في الثقافة والأدب، ص١٧٩)

تسليتي القراءة

وعيتُ على الدنيا قبل الحرب الأولى، وكنتُ لمّا أُعلنت (سنة ١٩١٤م) في أوائل أيامي في المدرسة، وكنت بِكر أبويّ فلم يكن لي أخ آنس به وأشاركه عبث الطفولة ولهوها، بل لم يكن على أيامنا شيء من هذا اللهو.

فلم يكن في الدنيا إذاعة ولا عرفها النّاس، ولم يكن

هذا الرائي (التلفزيون)، وكانت المجلات المصوّرة نادرة أو معدومة، فكانت تسليتي القراءة.

فكنتُ آخذ من مكتبتنا الكتاب بعد الكتاب أنظر فيه، فما فَهِمته قرأته، وما لم أفهمه تركته، أتبع في ذلك المصادفات، لا يُرشدني مرشد ولا يدلُّني أستاذ!

وكان من أوائل الكتب التي نظرت فيها، ولا أقول إنني قرأتها: كتاب (تذكرة داود). فكنتُ أجد متعة في معرفة خواص الأطعمة التي آكلها، والأشربة التي أشربها. ثم ظَهَرَ كتاب في مصر اسمه (إحياء التذكرة)، اعتمد مؤلّفه - الدكتور رمزي مفتاح القبطي - على العلم الحديث؛ فصحّح أخطاء في التذكرة كان يظنُّها الأوّلون حقائق، ثم توالت المؤلفات في هذا الموضوع.

ولكن مؤلفات الدكتور حسان شمسي باشا تمتاز عنها جميعها بميزتين: اعتمادها على آيات أو أحاديث جاءت صريحة في الموضوع الذي يتكلّم فيه أو أشارت إليه، وعلى أحدث ما وصل إليه العلم.

تكوين عادة القراءة

فليتعوّد الطلاب المطالعة بأن يقرؤوا كل يوم خمس صفحات، لا يتركوها أبدًا.

أنا من نصف قرن أقرأ ما لا يقلّ معدّله اليومي عن عشرين صفحة، بل لا يكاد يقلّ عن خمسين، فاحسبوا كم يبلغ مجموع عشرين صفحة في اليوم في خمسين سنة؟ أكثر من ثلث مليون.

(فصول في الثقافة والأدب، ص١٨١)

سبع وسبعون سنة مع العلم

سبع وسبعون سنة أمضيت أكثرها في العلم والأدب: دراسة في المدرسة، وقراءة على المشايخ، ومطالعة في الكتب، ومساجلة مع الإخوان.

لو أحصيت معدّل الساعات التي كنت أُطالع فيها

لزادت على عشر في اليوم؛ لأنّني منذ الصِّغَر شبه معتزل بعيد عن المجتمع. فلو جعلتُ لكلِ ساعة عشرين صفحة، أقرأ من الكتب الدَسِمة نصفُها، ومن الكتب السهلة نصفُها، لكَان لي في كل يوم مئتا صفحة. أتنازل عن نصفها؛ احتياطًا وهربًا من المبالغة، وخوفًا من الكذب (وإنْ كنتُ لم أكذب ولم أقُل إلا حقًا)، فهذه مئة صفحة في اليوم. فاحسبوا كم صفحة قرأت من يوم أنْ تعلّمت النَّظَر في الكتب وامتدت يدي إليها.

سبعون سنة، في كل سنة اثنا عشر شهرًا، في كل شهر ثلاثون يومًا، في كل يوم مئة صفحة. فإنْ هالكم الرقم فاحسموا منه نصفه، فكم يبقى؟

(الذكريات، ج٤/ ص٩١)

معدّل قراءتي في اليوم مئة صفحة

فأنا اليوم، وأنا بالأمس، كما كنتُ في الصِغَر؛ أمضي يومي أكثره في الدار أقرأ، وربما مرّ عليّ يوم أقرأ فيه ثلاثمئة صفحة، ومعدّل قراءتي مئة صفحة، من سنة ١٣٤٠ إلى هذه السنة ١٤٠٢هـ. اثنتان وستون سنة، احسبوا كم يومًا فيها واضربوها بمئة تعرفوا كم صفحة قرأت. أقرأ في كل موضوع، حتى في الموضوعات العلمية، بل والفنّية والموسيقية ... هذا غير النظر في الجرائد والمجلات.

(الذكريات، ج١/ ص٢١١)

مجموع ما قرأت مليونان ونصف

بدأت أقرأ سنة ١٣٣٥ ونحن اليوم في سنة ١٤٠٥ وأنا أقرأ أكثر ساعات ليلي، فلو قدّرت لكل يوم مئة صفحة، وأنا في الحقيقة أقرأ أضعافها، لكان مجموع ما قرأت مليونين ونصفًا من الصفحات!

(الذكريات، ج٣/ ص٢١١)

أقرأ كل يوم - منذ أنْ تعلّمت القراءة - عشر ساعات

فأنا طول عمري معتزل في بيتي أُمضي أكثر يومي في ليلي ونهاري في المطالعة، من حين تعلّمت القراءة وأنا ابن عشر سنين إلى الآن (وقد جاوزت الثمانين)، أقرأ كل يوم عشر ساعات على مدى سبعين سنة في جميع العلوم والفنون! وكنتُ بحمد الله أحفظ كلّ ما أقرأ وكلّ ما أسمع، فصرت الآن أحفظ الموضوع ولكن أنسى أين قرأته أو ممّن سمعته.

(الذكريات، ج٨/ ص٢١٧)

لقد عشْت عمري كلّه أقرأ وأكتب

ولو قدّر الله يومًا بعد موتي أنْ يأتي أخ كريم لا أعرفه، فيُحقّق الأمل الذي لم أحلم يومًا بتحقيقه فيجمع كلّ ما كتبت، لجاء معه أكثر من خمسين مجلّدًا. لا تظنّوا أني أُبالغ، فلقد عشْت عمري كلّه أَقرأ وأكتب، فاحسبوا كم قرأت كلّ يوم وكم كتبت.

(الذكريات، ج٤/ ص٣٣٨)

الاجتهاد والتحصيل الذاتي

أنا لمّا ورَدْتُ «مكتب عنبر» كنت أَحْمِل مع الشهادة الابتدائية في يدي ذخيرة من المعلومات في رأسي لا يقوى على حمل أكثر منها فتى في سِنّي. وما ألزمَتْني المدرسة بها ولا حصّلتها فيها، بل جمعتُها أو جمعت أكثرها وحدي من خارجها.

(الذكريات، ج١/ ص٢٠٧)

كيف كنتُ أَجد وقتًا للقراءة؟

كان عندي كل يوم - في المحكمة - ثلاثون قضية (أي: دعوى)، أَسمع مرافعاتها وأحكم فيها، وأُشرِف على مجالس التحكيم، وأعمل رئيسًا لثلاثة مجالس: مجلس الأوقاف، ومجلس الأيتام، والمجلس الأعلى للكليّات الشرعية في سوريا التي تتبع وزارة الأوقاف. وأُلقي دروسًا في الكلّية الشرعية في دمشق، وفي الثانوية الأولى للبنين والثانوية الأولى للبنات، وأخطب الجمعة في جامع المرابط أو في مسجد الجامعة، وأُحاضر في النوادي والجمعيات، وأُحدّث من إذاعة دمشق (وأنا أقدَم محدّث يسمعه الناس، مرّ عليّ الآن أكثر من خمسين سنة وأنا أُحدّث ما انقطعت عن الحديث)، وأكتب كل يوم كلمة صغيرة في جريدة «النصر» أولًا ثم في جريدة «الأيام». كلمة صغيرة، ولكنها كصغر القنبلة اليدوية، لها مثل دويّها ومثل أثرها في تدمير الباطل.

كنت أَصْنَع هذا كلّه، ثم أجد وقتًا أجلس فيه في المكتبة.

وكنت - مع ذلك - أقرأ كل يوم مئتين أو ثلاثمائة صفحة، وأنا مستمرّ على ذلك من يوم تعلّمت القراءة وأنا صغير، أي: من نحو سبعين سنة إلا قليلًا، أَصْرِف فضل وقتي كلّه في القراءة؛ لأنني ما كنت ألعب مع الأولاد في الشارع ولا أذهب مع الشباب إلى ملهى، ولست امرأ اجتماعيًا يُضيِّع وقته في استقبال القادمين ووداع المسافرين وتهنئة الفرِحين وتعزية المصابين، ولا أُجيب دعوة، لا سيما إنْ كانت إلى طعام. وأستغفر الله من ذلك إنْ كان فيه مخالفة لِما هو أكمل من نظر الإسلام، ولا أدعو أحدًا إلى أنْ يفعل مثلي، ولا أستقبل زائرًا إلا عن موعد سابق، ولا أزور أحدًا إلا في الحالات النادرة، فحفظت بذلك وقتي وأرحت نفسي.

تقولون: كيف قدرت على هذا كلّه؟ وكيف اتسع له وقتك؟

والجواب: أنني لم أكن أُقسّم نفسي ولكن أُقسّم وقتي، وهذا ما يُسمّى عند الفقهاء «المُهايَأة». هل سمعتم بالمُهايَأة؟ إذا كان للدار مالكان لا تتّسع لهما ولا يمكن أنْ تُقسّم بينهما فإنهما يُقسّمان الوقت، فيستعملها كل واحد منهما شهرًا أو سنة، ويستعملها الآخر مثل ذلك.

وأنا حين أكون في المحكمة أوليها انتباهي كلّه، ولا أُفكّر في الجريدة ولا في المدرسة، وإنْ كتبت أكتب للجريدة أُبعِد ذهني عن المحكمة، وحين أكون في المدرسة لا أُفكّر في غير دروس المدرسة. ثم إنّ ذلك كان على عهد الشباب «روائحُ الجنّة في الشباب» كما قال أبو العتاهية، ولو أنّ الشُبّان من قرّاء هذا الفصل أنفقوا قواهم وصرفوا وقتهم في الجِدّ وفي المنتج النافع لصنعوا أكثر ممّا صنعت.

(الذكريات، ج٦/ ص٣٣٢)

قرأتُ كتبًا لم يقرأها بعضُ أساتذتي

لقد قرأتُ قبل مكتب العنبر وفي سنواتي الأولى فيه كتبًا لا أكون مبالغًا ولا مُدّعيًا مغرورًا إنْ قُلت: إنّ في الأساتذة اليوم مَن لم يقرأها؛ ذلك أني كنت أمضي وقتي كلّه (إلا ساعات المدرسة) في الدار. لم أتخذ لي يومًا رفيقًا من لِـداتي ولا صديقًا من أقراني، ولم أكُن (بحكم تربيتي ووضْع أسرتي) أعرف الطريق إلى شيء من اللهو الذي كان يلهو بمثله أمثالي، فلم يكن أمامي عمل أُنفق فيه فَضْل وقتي وأَشغل به نفسي إلا المطالعة.

(الذكريات، ج١/ ص٢٠٨)

أمْضيتُ حياتي كلّها في المطالعة

ولكنّي أمْضيتُ حياتي كلّها في المطالعة، هي متعتي وتسليتي، وهي شُغْلي أيام فراغي وعطلتي، من صِغَري إلى اليوم، وكنت لا أنسى شيئًا قرأته، ولا أزال – ولله وحده الحمد- أذكر إلى الآن أكثر ما أقرأ.

(الذكريات، ج٧/ ص٣٢٢)

أَذْهَبْت بصري في المطالعة

فما الذي استفدته من عُمري؟

طلبت المجد الأدبي وسعيت له سعيه، وأذهبت في المطالعة حِدّة بصري، وملأت بها ساعات عمري، وصرّمت الليالي الطوال أقرأ وأطالع، حتى لقد قرأت وأنا طالب كتبًا مِن أدباء اليوم مَن لم يفتحها مرة واحدة لينظر فيها.

(الذكريات، ج٣/ ص٢١١)

أهمية وجود المكتبة في البيت

وكانت في دارنا مكتبة كبيرة، وهي دانية منّي كتبُها كلّها تحت يدي، ولم أكُن - لشُغْل أبي عنّي - أجدُ مَن يُرشدني ويدلُّني، لذلك كنت (كما قلت من قبل) أَسْحَب الكتاب لا أدري ما هو، فأفتحه فأنظر ما فيه، فإنْ لمْ أفهمْه (أو فهمتُه ولكن ما أسغته) أعدتُه وقد عَلِقَ في ذهني اسمه، وإنْ فهمتُه وأسغته قرأته.

(الذكريات، ج١/ ص٢٠٨)

أوّل ما قرأت كتاب «حياة الحيوان»

وكان أوّل ما قرأت كتاب «حياة الحيوان» للدَّميري، وهو كتاب عجيب فيه فقه، بل هو أقرب مرجع لمعرفة الحُكم الشرعي في الحيوان الذي يؤكَل لحمه والذي لا يؤكل. وفيه تاريخ، وفيه فوائد، وفيه خُرافات... ثم قرأتُ «المستطرَف» و«الكشكول»، وهما من أدب

عصور الانحطاط والتأخُّر، ثم وقَعَت يدي على «الأغاني» لأبي الفرج فعَلقْتُ به وقرأت أكثر أجزائه، لا أزعم أني فَهِمت كل ما فيه ولا أني أَحطْت به، بل أقول: إنّ الذي فهمته نُقِشَ على صفحة ذهني.

(الذكريات، ج١/ ص٢٠٨)

الجمع بين التلقّي والنظَر في الكتب

مشيتُ في دراستي من أوّل يوم في الطريقتين معًا؛ طريقة المشايخ وهي على الأسلوب الأزهري القديم، وطريقة المدارس النظامية التي سلكتُها من أدنى الابتدائية إلى أعلى الجامعة، وأخذْت من الاثنين خيرَ ما وجدته فيهما، ولكن الذي كان أجدى عليّ وأنفع لي منهما، أو هو في النفع مثلهما، هو المطالعة.

(الذكريات، ج١/ ص٢١١)

قرأتُ كتاب «الأغاني» وأنا طالب

هل تُصدّقون أني قرأتُ «الأغاني» كلّه وأنا لا أزال طالبًا؟ أعترفُ الآن أنني لم أفهم كل ما فيه من الشِّعر وأني كنتُ أتخطّى بعضه، أمرّ به ولا أقفُ عليه، ولكني قرأته. فهل في الطلاب اليوم من قرأ «الأغاني»؟ ولولا الحياء لقلت: كم من أساتذة العربية مَنْ قرأه كلّه؟!

(فصولٌ في الثقافة والأدب، ص١٧٤)

قرأتُ على أبي وأنا صغير

أقول: إني قرأت من الفقه على المشايخ أكثر ما كانوا يُقرؤون، وإنْ لم أقرأ كل ما قرؤوا. وفهمت - والحمد لله- كل ما قرأت وحفظته، ورُبّ قارئ لا يفهم وفاهم لا يحفظ. قرأت ما يُدعى اليوم بالأحوال الشخصية في كتب الفقه على أبي وأنا صغير مع تلاميذه الكبار، فلمّا مات من ثلاث وستين سنة (أي: سنة ١٣٤٣هـ،

وكنت أناهز السابعة عشرة) وذهبوا يقرؤون على الفقيه الكبير المفتي الشيخ عطا الكَسْم ذهبت معهم، فحضرت أكثر «فتح القدير» لابن الهُمام، وقرأت على جماعة من المشايخ كشيخنا الشيخ أبي الخير الميداني وغيره رحمة الله عليهم جميعًا.

(الذكريات، ج٧/ ص٨٢)

ولقد كُنّا في المدارس الابتدائية نقرأ الكتب الكثيرة، حتى إنني قرأت كتاب «الأغاني» كلّه (متخطّيًا إسناده والكثير الذي لا أفهمه منه) في عطلة الصيف التي أمضيتها بعد السنة الثانوية الأولى. وكُنّا يومئذ نُحسن المراجعة في حاشية الخضري وفي المغني لابن هشام، وكان فينا من يَنْظم ويكتب، وعندي مقالات كتبتها في تلك الأيام قد لا تُرْضيني أفكارها، ولكن أسلوبها في الجملة يُرضيني اليوم.

وكنّا نختلف إلى بعض العلماء، نسمع دروسهم العامة في المساجد ودروسهم الخاصة في البيوت، فما

أكملنا الدراسة الثانوية حتى أتقنّا قراءة النحو على المشايخ، وقراءة البلاغة والفقه والأصول والحديث، وحضرنا كتبًا في التفسير والكلام، وعرفنا عشرات من أمّات كتب العلم، وقرأنا فيها وتصفّحناها أو رجعنا إليها، وحفظنا أسماء مئات (مئات حقًا) من أعلام الإسلام من الصحابة والتابعين والفقهاء والمحدّثين والمفسّرين والفلاسفة والقُوّاد والأدباء والشعراء، حتى صارت أسناد الحديث والأدب مألوفة لنا؛ لكثرة مَن عرفنا من رجالها، ومن لا نعرفه نرجع إلى ترجمته.

وكنّا في الثانوية نرجع إلى الإصابة، وأسد الغابة، والاستيعاب، وتهذيب التهذيب، وتهذيب الأسماء واللغات، وابن خَلِّكان، والفَوَات (فَوَات الوَفَيات)، ومعجم الأدباء، وطبقات السّبكي، وتاريخ الخطيب، وابن عساكر، والديباج المُذهَّب، وطبقات الحنفية، وبغية الدعاة، وتاريخ الخلفاء، وابن أبي أُصَيْبِعة...

وكانت هذه الكتب كلها وأخرى مثلها في مكتبة أبي، وكانت تحت يدي من تلك الأيام.

(الذكريات، ج٨/ ص٣٢١)

كنت إنْ سمعت عن كتاب بحثت عنه حتى وجدته فقرأته

وجُلّ انتفاعي كان بمجالسة العلماء والرجوع إلى الكتب، فما أسمعه منهم يُنقَش في ذهني فلا أنساه (وهذه المنّة من الله باقية عندي إلى الآن)، وإنْ سمعت باسم كتاب أو قرأت شيئًا منقولًا عنه أو معزوًّا إليه بحثتُ عنه حتى وجدته فقرأته.

وقد اطّلعت على مذهب أحمد لمّا طَبَع ولدي الفاضل النابغة الأستاذ زهير الشاويش كتبَه كلها بأمر الشيخ علي آل ثاني - رحمه الله- وعلى نفقته، واستفدت من إدمان النظر في كتب الفقه غير المذهبي مثل: «نيل الأوطار»، و»سبل السلام»، و»فتح الباري»، واستفدت الفائدة الكبرى من مجموع الفتاوى لابن تيمية -رحمه الله- وجزاه خيرًا، وجزى مَن جمعها ومن طبعها.

(الذكريات، ج٧/ ص٨٢)

الحنين للكُتُب

وإنْ لم أجد الاستقرار؛ لأنّ دُنيا طالب العلم مكتبته، ومكتبتي في الشام مُودَعة في خمسة وثمانين صندوقًا لم تُفتَح من إحدى عشرة سنة، ولستُ أدري أأكلتها الأرَضة أم هي سالمة لا تزال، وأنا هنا محرومٌ منها لا أستطيع الوصول إليها، ولم أجد المُحسن الكريم الذي يُوْصلها إليّ، بالأجرة لا بالمجّان، فما أُريد إحسانًا من أحد؛ لأنّ الله أغناني بإحسانه.

(الذكريات، ج١/ ص٢٨)

أنيسي كُتُبي

فكنتُ طول عمري عائشًا وحدي، أنيسي كُتُبي، وإنْ زُرْت فالكبار من تلاميذ أبي أو إخوانه، كان يصحبُني أحيانًا معه فأستمع ولا أتكلّم؛ لأنّ الصغار لا يتكلّمون في مجالس الكبار.

الذكريات، ج١/ ص٥٥)

أكبر المُتَع

وأنا رجل يعرفني الناس كلّهم من فوق المنبر، ومن صحائف الجرائد، ولكني كنت (ولا أزال) متوحشًا، لا أنغمس في الحياة الاجتماعية، وكنت ولا أزال أعدّ أكبر المُتَع خلوة بكتاب أقرؤه، أو إخوان زادت بيني وبينهم الأُلفة، وزالت الكُلفة، أجلس معهم.
(الذكريات، ج٣/ ص١٦٨)

بداية التعرّف على الكتب

ولقد كنت – منذ وعيت – أجد إذا أصبحت مشايخ بعمائم ولحى يقرؤون على أبي، وكنت أدخل بالماء أو بالشاي فألتقط كلمة بعد كلمة، لا أفهم معناها ولكن تبقى في نفسي ذكراها. ثم صار أبي يأمرني أنْ أُناوله الجزء الأول من حاشية ابن عابدين، أو الثاني من الفتاوى الهندية، أو جزءًا من القاموس، أو تنقيح الحامدية ... فعرفت بعض أسماء الكتب. (الذكريات، ج١/ ص٩٧)

النَهَم المُبكِّر

وقرأتُ من الكتب ما لا يقرأ مثلَه تلميذٌ في مثل سنّي يومئذٍ - الصف الخامس -، وإنْ كنت قد قرأت معها القصص التي كانت تسلية تلك الأيام: قصة عنتر، وقصة بني هلال، والملك سيف، والأميرة ذات الهمة ... ورأيت فيها من أخبار الفروسية وأنباء البطولة، ومن الأكاذيب والانحرافات ما لا مزيد عليه.

(الذكريات، ج١/ ص١١٦)

ولو حدّثتُكم عن الكتب التي قرأتها وأنا في تلك السنّ، وأنا تلميذ في السنة السادسة الابتدائية لَمَا صدّقتم. وكنت أمضي يومي (إلا ساعات المدرسة) في الدار، لا أجد ما أشغل به نفسي وأملأ به فراغ حياتي إلا القراءة، فإذا أنا أكملتُ كتابة «وظائفي» ومطالعة درسي مددت يدي إلى المكتبة (وكانت لدينا مكتبة

حافلة) فأسْحَب كتابًا فأفتحه فأنظر فيه، فإنْ لم أفهمه (أو فهمته لكن ما أسغته) أعدته إلى مكانه وقد رسخ في نفسي اسمه واسم مؤلّفه، وإنْ أعجبني قرأته، وكان الذي أقرؤه يُنقَش في ذاكرتي نقشًا لا تمحوه الأيام.

(الذكريات، ج١/ ص١٢٦)

لا يأتيني كتاب فأنام حتى أقرأه

وأنا لا يأتيني كتاب فأنام حتى أقرأه، فإنْ كان كبيرًا يَضيق الوقت عن قراءته تصفّحته وقرأت مقدّمته ونظرت في فهرسه، واطّلعت على بعض فصوله حتى أُلِمّ بموضوعه وأعرف أسلوبه.

(الذكريات، ج٨/ ص٢١٣)

أَقرأ في كُلّ علم

كنتُ (ولا أزل) أقرأ في كُلِّ عِلم: في التفسير، وفي الحديث، وفي الفقه، وفي التاريخ، وفي الأدب: الأدب العربي، والأدب الفرنسي، وفي العلوم على تنوّعها وتعدّدها.

ولا أزال - والحمد لله- أستوعب خُلاصة وافية لِما قرأت. ما كنت أنسى شيئًا، فصرت الآن أنسى أفراد المسائل؛ أنسى الأرقام وأنسى الأسماء، ولكنني أحفظ المسألة. لقد تمكَّنَت في نفسي الأصول وإنْ غابت منها الفروع، فتحوّل الحفظ إلى مَلَكة.

قرأت دواوين الشعراء عشرات وعشرات، ومن كتب الأدب أكثرَها، ومن القصص الفرنسية والمترجَمة عن الإنكليزية والروسية ولغات الأرض كلها مئات. نعم مئات، لا يزال أكثرها عندي.

(الذكريات، ج٤/ ص٩٢)

فضْل المعلّم في التوجيه المبكِّر

ولطالما دلّنا – أي: الشيخ محمد المبارك – على كتب قرأتها وانتفعتُ بها، وهي رأس مالي في العلم والأدب، ولولاه ما سمعت بها.

ثم درّسنا السيرة فجاء بشيء ما رأيت والله ولا سمعتُ بمثله، يُصوّر الوقائع ويصف أمكنتها، ويشرح ما قيل فيها ويدلّ على مراجعها، فكأنّنا كنا فيها، وكنت أستوعبها استيعاب التربة العطشى ماء المطر، وكان يدلّنا على الكتاب فأُسرِع إلى قراءته إنْ كان في مكتبتنا، أو إلى شرائه إنْ لم يكن عندنا. ولقد سمّى لنا كتاب «الروض الأُنُف للسُّهَيلي» فشريته عند خروجي من المدرسة، وما بتُّ حتى تصفّحته وقرأت صفحات كثيرة منه.

{الذكريات، ج١/ ص١٥٨}

رأس مالي في الأدب

و«الأغاني» قرأته كلّه، أعني أخباره وقصصه دون ما فيه من أسانيد وأصوات وأشعار وأنساب، وهو رأس مالي في الأدب، وقرأت **«الكشكول»** و**«المِخلاة»**، و**«مراقي الفلاح»** في الفقه الحنفي، ألزمني والدي قراءته أسبغ الله عليه رحمته، و**«شرح رسالة ابن زيدون»** المطبوع على هامش **«الغيث المنسجم»**.

(من حديث النفس، ص٢٠٣)

أثَــر القــدوة

من أوراق أبي: وجدتُ بخطّه - رحمه الله- مسوَّدات عمل عظيم، لمْ أعلم متى كتبها ولا كيف قدر عليها، هي أنّه أحصى زيادات **«القاموس المحيط»** على **«لسان العرب»** فبلَغَت نحو ألف مادّة، ويبدو أنه أكملَ العمل وبيّض هذه المسوَّدات، ولكني لمْ أجد إلا مقدّمتها،

مكتوبة على طريقة العلماء لا بأسلوب الأدباء.

ومَن شاء أنْ يتصوّر ما بذل - رحمة الله عليه - من جُهْد فليقرأ القاموس المحيط كلّه ولسان العرب كلّه، ثم لينظر ما زاد في أحدهما على الآخر. كم ترونَ هذه القراءة وهذه المقابلة تقتضيه من وقت، مع استنفاد أكثر وقته في التدريس وفي العمل وفي لقاء الأصدقاء!

(الذكريات، ج١/ ص٢٣٦)

طريقتي في المطالعة

وكانت طريقتي في المطالعة أني إذا فرغت من دروس المدرسة دخلت مكتبتنا فتخيّرت كتابًا فأخذته فنظرت فيه، فإنْ أعجبني مضيت فيه لا أدعه حتى أُتمّه، وإلا أخذت غيره. لا أستعين على ذلك بمرشد ولا أستهدي بهاد، إلا ما كان شيخنا الأستاذ اللغوي الشيخ عبدالقادر المبارك يُسمّه لنا من الكتب ويُرشدنا إليه. وكُنا نأخذ الأدب عن الأديب الضليع المتفنّن

الأستاذ سليم الجندي، وكان يُحذّرنا - جزاه الله خيرًا - أنْ نقرأ الجرائد والمجلات وكتابات أهل العصر (على اعترافه أنّ فيهم مَن أطفأت شمسُه بدورَ البُلغاء من الأوائل)؛ خشية أنْ نُسيء الاختيار، فتُصيبنا عدوى الركاكة، وهي شرّ من عدوى الكوليرا والجُذام!

فدخلت الجامعة وأنا لا أعرف من العصريين إلا المنفلوطي رحمه الله، وكنت أظنّه أبلغ كتّاب العصر، ولا أعدل بأسلوب «نظراته» شيئًا حتى وقع في يدي «رفائيل» للزيّات، فوجدته كنزًا من أغلى كنوز النثر، وصَغُرت معه «عبرات» المنفلوطي حتى صارت كل شيء.

ثم عرفت الرافعي وقد أصدر كتابه: «تحت راية القرآن» (رفع الله درجاته في الجنة)، فعلمت أنّ الله قد خلق مَن هو أبلغ من المنفلوطي، إي والله، ومِن عبد الحميد وابن المقفّع وابن العميد، ومَن كنّا نراهم يومئذ أئمة البلاغة واللَّسَن. على أني لم أنسَ المنفلوطي، وترجمت عن شكري له ولأستاذيّ الجندي والمبارك

بإهداء الثلاثة كتابي «الهيثميات»، وهو أول كتاب ألّفته سنة ١٩٣٠م (وعلى أنّ رأيي في الرافعي قد بدّلته الأيام، فلم أعد أستحسن من الأساليب إلا ما قارب الطَبْع وبَعُدَ عن الصنْعة).

(من حديث النفس، ص٢٠٣)

مصادر الثقافة الأولى

ما كان بالشام يومئذٍ نوادٍ أدبية، والنادي العربي الذي أُسّس أيام الشريف فيصل قبل ميسلون كان ناديًا سياسيًا، والمجمع العلمي كان للمحاضرات وكان منبره مصدرًا من مصادر ثقافتنا؛ محاضرات المجمع الأسبوعية، وحلقات الأموي الدائمة، مع دروس المدرسة وما آخذُه عن المشايخ، وما أستفيده من المطالعة، كانت ثقافتي كلها من هذه الينابيع.

(الذكريات، ج٢/ ص٩)

العكوف على كتب الأدب القديم

ولقد أمضيتُ أنا أكثر سِنِي دراستي الإبتدائية والمتوسطة وأنا عاكف على كتب الأدب القديم، ما عَرَفت من الجديد إلا المنفلوطي الذي نشأنا على «نظراته»، أدْمنت قراءتها حتى حفظتها، و«عبراته» وما تُرجم له، فكتبَه بقلمه من القصص الفرنسية. وعَرَفت «مجلة الرابطة الأدبية» التي صدرت في الشام نحو سنة ١٩٢٠م، ومجلّة «الميزان» التي كان يُصدِرها أحمد شاكر الكرمي. وعَرَفت شعر شوقي وحافظ والمطران من قديم. وعَرَفت شُعراء مصر أو أكثرهم من كتاب الصديق الأستاذ أحمد عبيد «**مشاهير شعراء العصر**».

ثم فُتح أمامي الباب على مصراعيه، فعرفت من «الهلال» وأخواتها أو بناتها، ومن السياسة الأسبوعية ومن غيرهما أكثرَ أدباء مصر، وقرأت كل كتب العقّاد يومئذ («المطالعات»، و«ساعات بين الكتب»، و«الديوان» وغيرها)، وكنت وأنا طالب أُعجَب

بفكره وأستفيد من سعة اطّلاعه، ولكنْ لا أطرب كثيرًا لأسلوبه.

وقرأت كتب المازني: «حَصاد الهَشيم»، و«قَبْض الريح»، ورواية «ابن الطبيعة» التي ترجمها عن الإنكليزية لا عن أصْلها الروسي، وكادت تؤثّر في ديني وتُفسِد فكري لولا أنْ أنقذني الله من شرّها. وقرأت له «**إبراهيم الكاتب**»، و«**غريزة المرأة**» التي سَرَقها أو اقتبسها أو قلّد فيها الكاتب الإنكليزي غالسورثي. على أنّي أحببت المازني وكنت أطرب لأسلوبه وفكاهته وسخريته، وتأثرت به حينًا وحاولت تقليده، ولكن من أين لي خِفّة روحه؟

أمّا الرافعي فكُنّا نقدّمه يومئذ ونتعصّب له ولا نُؤْثر عليه أحدًا، وقد تبدّل نظَري الآن إلى أسلوبه كما تغيّر حُكمي على كثير ممّن كنت أقرأ لهم في شبابي.

(الذكريات، ج٢/ ص٣٩١ - ٣٩٣)

وكان الذين يكتبون عندنا - بالشام - قلائل، وما يصل إلينا من مصر من الكتب والمجلات قليل أيضًا، ولا أمُدّ إليه يدًا؛ لأنّ الاستاذ كان يُحذّرنا منه؛ لئلا تفسُد به ملكاتنا، ويسْري اللحن إلينا، لذلك اقتصَرَت قراءاتي إلى آخر الدراسة الثانوية على كتب الأدب القديم، فقرأت (الأغاني) كلّه، وإنْ لم أفهمه كلّه، و(العقد الفريد)، و(البيان والتبيين)، وما كان في مكتبتنا من أمثال هذه الكتب، وما كان فيها من دواوين الشعراء، ولم أعرف من الأدب الجديد إلا ما كتَب المنفلوطي في «النظرات» و»العبرات»، وما تُرجم له فصاغه بقلمه من القصص والروايات، ومجلة (الرابطة الأدبية) التي تكلّمت عنها في الحلقة (٢٢) من هذه الذكريات.

ما كُنّا نعرف من الكتّاب إلا العقاد والرافعي والمازني وطه حسين والزيات وحسين هيكل وأمثالهم، عرفنا

بعض كتبهم التي وصلت إلينا، كالمطالعات والديوان وحصاد الهشيم، أمّا كتّاب الشام فقد عرفنا منهم محمد كرد علي في خطط الشام وغرائب الغرب، وشكيب أرسلان، ومحب الدين الخطيب، وأعضاء الرابطة الأدبية، وأمثالهم فهل أستطيع أنْ أقول: إنني قلّدت في الكتابة واحدًا منهم، ومشيت على أثره، وتبعته في أسلوبه؟ هذه كتاباتهم وهذه كتاباتي، فما منهم مَن أشبهت كتابتي كتابته حتى أكون قد قلّدته. وكان أهلي علماء ما كان فيهم كاتب إلا خالي محب الدين فهل قلّدته؟ إنّ أسلوبه غير أسلوبي، فمن أين إذن جئت بهذا الأسلوب؟ ما عندي عن ذلك إلا نصف العلم، ونصف العلم: لا أدري!

(الذكريات، ج٣/ ص٢٣٦)



الفصل الثاني

حديثُه عن الكُتُب والكُتّاب



نصيحة للمبتدئين

فليتعوّد الطلاب المطالعة، وليبدؤوا بالكتب الخفيفة السهلة.

لي أخ أحببت أنْ أعوّده المطالعة وهو صغير، فأتيته بقصة عنترة في ثمانية مجلدات. وقصة عنترة مكتوبة بأسلوب فصيح، وفيها فروسية وفيها أدب، وفيها كثير من أخبار العرب، وإن كان مخلوطًا فيها الحقُّ بالباطل والواقعُ بالخيال، وليست كقصص هذه الأيام. فقرأها كلها، المجلدات الثمانية، وحفظ أكثر ما فيها.

ثم أتيته بفتوح الشام (**المنسوب للواقدي**)، وهو كتاب مزيج من التاريخ ومن القصة، فقرأه، ثم تدرّج في المطالعة حتى صار يقرأ الكتب الكبار.

(فصول في الثقافة والأدب، ص١٨٠)

البدء بالقصص

فليبدأ الطلاب ولو بالقصص، على أن يختاروا منها القصص البليغة الأسلوب، العالية الهدف، العميقة المغزى.

ولقد تُرجمت أكثر القصص الأدبية العالمية، كالتي ترجمها المنفلوطي، أو تُرجمت له فكتبها بأسلوبه، أو ترجمها الزيّات، وغيرها من كتب التراجم التي هي أجمل من القصص.

وأنا أوصي الطلاب والطالبات بقراءة كتاب «**التلميذة الخالدة**» الذي ألّفته بنت مدام كوري، وقصّت فيه حياةَ أمها مدام كوري مكتشفة الراديوم.

ثم ينتقلون من القصص إلى كتب الأدب، فيقرؤون - مثلًا - «البخلاء» للجاحظ، و»كليلة ودمنة» لابن المقفّع. ثم يقرؤون كتبًا أنفع، ككتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزي، وكتاب الحارث المحاسبي «الرعاية لحقوق الله»، ثم يقرؤون كتب العلم.

{فصول في الثقافة والأدب، ص١٨٠}

خيرُ ما يُقرأ

وخير ما يقرؤون القرآن، بشرط أن يفهموا ما يقرؤون، وقراءةُ سورة قصيرة مع الفهم والتدبّر خير من ختمة بلا فهم ولا تدبّر.

القرآن أساس البلاغة في القول، فضلًا عن كونه أساس الهداية للقلب، وكونه دستور الحياتين وسبب السعادتين.

(فصول في الثقافة والأدب، ص١٨١)

أنواع الكتب

المهم حُسْن اختيار الكتب، فالكتب مثل الأطعمة، فيها النافع وفيها الضار، ومنها المغذّي المفيد، وما هو كثير الدسم عظيم النفع ولكن لا تشتهيه النفس، وما هو مُشَهٍّ لذيذ ولكن لا ينفع، ومنها السمّ القاتل، ومنها ما هو سمّ ولكنه ملفوف بغشاء من السكّر، فمن انخدع بحلاوة الغشاء قتله السمّ!

ومَنْ أكَلَ كلّ ما يجده - يخلط به الحلو والحامض والحار والبارد - أصابته التخمة وسوء الهضم، ومن قرأ كل شيء صار معه سوء هضم عقلي!

ومن الكتب ما يُدخِلُ الجنّةَ ومنها ما يُدخِلُ النّارَ،

فلينتبه الطالب، وليسأل من يثق به من المدرّسين والعلماء، وإلا كان تركُ المطالعة خيرًا منها.

(فصول في الثقافة والأدب، ص١٨٢)

كُتُب العالِم أصدقاؤه

وكتُب العالِمِ (أو طالب العلم مثلي) هم أصدقاؤه، ولا تطاوعني نفسي في التخلّي عن أحد من أصدقائي، بل إنّني لطول معاشرتي الكتب وابتعادي (إلا عند الاضطرار) عن الناس أَفيضُ عليها صفات الأحياء من الأصدقاء، فهذا مُخْلِص ولكنه قبيح الصورة صعْب العِشْرة، وهذا عالِمٍ مطّلع ومعلِّم نافع ولكنه ثقيل الدم بعيد عن القلب، وهذا خفيف الروح يسلّيك ويُطربك لكن لا تخرج من صحبته بطائل، وهذا حبيب إليك لا تملّ رفقته ولا تحتمل فُرقته، وهذا بغيض إليك ولكنه مفروض عليك.

{الذكريات، ج٢/ ص٢٣٩}

القراءة ضرورة

المطالعة ضرورية للطالب وضرورية للمدرّس؛

فالمدرّس الذي يقتصر على ما تعلّمه في المدرسة، ولا يُطالع ليوسّع أفقه ويزيد علمه، يتخلّف عن القافلة ويُصبح بين الطلاب كأنّه طالب حافظ لدرسه!

وهي ضرورية للطبيب؛ ليطّلع على ما كُشِف من أمراض، وما استُحدث من طرق العلاج، وما جَدّ من أدوية.

وضرورية لعالم الدين؛ ليرى ما حدثَ في الدُّنيا، فيعرف كيف يبيّن حكم الله فيه.

وضرورية لعلماء الدُّنيا؛ ليعرفوا أحكام دينهم وأسراره ومزاياه.

ولو أردنا أن نعرف مقدار رقيّ بلدٍ فلننظر إلى عدد الكتب التي تُباع فيه.

{فصول في الثقافة والأدب، ص١٨٣}

تحذير خبير

فانتبهوا - يا أيُّها القرّاء - لما تنظرون فيه من كتب ومجلات، وما تسمعونه من إذاعات ومحاضرات، وما تشاهدونه من مسلسلات ومسرحيات، ولا تظنّوا أنّ أثَرَ ذلك يذهب مع إكمال الكتاب أو انتهاء المحاضرة أو إسدال الستار على المسرحية، بل إنّ بعْضه يبقى ما بقيَت الحياة.

فيا رحمة الله على الشيخ عيد السفرجلاني وعلى أمثاله من مشايخنا الأوّلين، الذين كانوا لنا آباء وكانوا مربّين، وكانوا مراقبين ناصحين.

(لذكريات، ج١/ ص١٠١)

كتاب تاريخ الخلفاء

فاستعرتُ من مكتبة ندوة العلماء كتبًا منها «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، وأنا مولعٌ بهذا الكتاب، وقد قرأته مرّات كثيرة. {فصول في الثقافة والأدب، ص٤٢}

كتاب على كل أسرة أنْ تقتنيه وأنْ تقرأه

أما هذا الكتاب - نحو أسرة مسلمة لمحمود مهدي الأستانبولي - فمن تحصيل الحاصل أنْ أُرغّب فيه، أو أنْ أقول أنه يَصْلُحُ برنامجًا كاملًا للأسرة التي تُريد أنْ تكون سعيدة في هذه الحياة، ناجية في الحياة الأخرى، وأنّ على كل أسرة أنْ تقتنيه وأنْ تقرأه، وأنْ تُحاول العمل بما فيه.

(مقدمات الشيخ علي الطنطاوي، ص٢٥٠)

كتاب التربية الحديثة

لمّا كنت شابًا تُرجم إلى العربية كتاب أظنّ أنّ اسمه «التربية الحديثة» لأدمون دومولان، وقد نسيت اسم مترجمه، وهو باقٍ في مكتبتي في الشام التي لا أعلم هل يُكتب لي أنْ أعود فأراها أم أموت بعيدًا عنها.

كان لهذا الكتاب أثر بالغ في نفسي وفي نفوس الذين قرؤوه؛ لأنه جاء بشيء جديد (أو بشيء كان في تلك

الأيام يُعَدّ جديدًا). قرأته مرات وبقي في ذهني كثير مما فيه، من ذلك: أنّ المؤلّف ذهب إلى إنكلترا ليُدرّس في إحدى مدارسها، فقابل مديرها وأخرج له شهاداته، فنحّاها المدير مبتسمًا وقال له: أنا لا أُريد أوراقًا بل مدرّسًا، وهؤلاء هم طلابك، فتفضّل فألقِ الدرس عليهم، فكان مما تعلّمته منه أن كفاية المرء لا تُقاس بشهاداته بل بعلمه وعمله.

(الذكريات، ج٨/ ص١٣٥)

كتاب الاعتبار

اقرؤوا ما كتبه أسامة بن منقذ.
هل تعرفون أسامة بن منقذ؟

إنّه البطل الأديب، أحد فرسان الحروب الصليبية وأحد المؤلّفين البارعين، وكتابه «الاعتبار» الذي دوّنَ فيه مشاهداته من الكتب العالمية، وقد تُرجم إلى أكثر اللغات الحيّة. (فصول في الثقافة والأدب، ص٦٩)

كتاب المِراح في المِزاح

ومن شاء أن يطّلع على مزاح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين والأئمة، فلينظر كتاب «المِراح في المِزاح» للغَزّي.

(فصول في الثقافة والأدب، ص٧٢)

كتاب ثقافة الهند

لكي تروا جانبًا من جوانب عظمة المكتبة الإسلامية اقرؤوا كتاب «ثقافة الهند» الذي طبعه المَجْمَع العلمي في دمشق لمؤرّخ الهند العالم الجليل والد أبي الحسن النَّدْوي، وهو في خمسمائة صفحة من القطع الكبير بالحرف الصغير، كلّه أسماء للكتب التي أُلِّفت في الهند.

(فصول في الثقافة والأدب، ص١٠٠)

كتاب السلطان محمد الفاتح

من أكثر من عشر سنوات، حَمَلَ إليّ البريد يومًا وأنا في دمشق كتابًا عنوانه: (محمد الفاتح)، لمؤلف لمْ أسمع باسمه من قبل - اسمه (سالم الرشيدي) - ففتحته أتصفحه وأنظر ما فيه، فلم أكد أبدأ بقراءته حتى عَلَقْتُ به، فتركتُ شُغْلي وعكفتُ عليه، وحملته معي إلى بيتي، فما فرغتُ من صلاتي وغدائي حتى رجعتُ عليه، ثم لمْ أنم حتى أكملته ... لقد وجدتُه كتابًا يستحق أنْ يُقرأ.

وإذا وصفتُ كتابًا بأنّه يستحق أنْ يُقرأ فقد قرّظته؛ لأنّ الكتب أكثر عددًا من ساعات العمر، فلو جعلتُ لكل كتاب ساعة (وما تكفي ساعة) لم تقرأها كلها، ولا قرأت نصفها ولا ربعها. ولا بدّ لك أنْ تتخيّر وتنتقي، وليس يُنتقى إلا الكتاب الذي جدّ موضوعه، وجاد عرضه، وخفّ ظلّه، وجلّت فائدته. هذا هو الكتاب الذي يستحق أنْ يُقرأ، وهذا ما يُوصف به كتاب (محمد الفاتح) للأستاذ سالم الرشيدي.

(مقدمات الشيخ علي الطنطاوي، ص٢٥٦)

كتاب الأغاني

كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، كتاب مشهور جدًا ومفيد جدًا، ولكن الناس رفعوه فوق منزلته ووثقوا به أكثر مما ينبغي أن يوثَق به، وصار كثير من كبار الأدباء والباحثين ينقل منه الأخبار التاريخية ويعزوها إليه، كأن العَزْو إليه يُسقط عن الباحث تَبِعة التحقيق، بل لقد وجدنا من هؤلاء الباحثين الكبار من ينقل منه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه ينقل من صحيح البخاري! مع أن هذا الكتاب ما كان قط كتاب حديث، ولا كتاب تاريخ، ولا يوثَق بأخباره ولا يعتمَد عليها.

أما كتاب «الأغاني» فإن من أراد متعة الأدب، وطلب جيد الشعر، وأراد الإحاطة بأخبار الشعراء والمغنّين؛ للّذة الأدبية وتقوية الملَكة البيانية، فلا يجد كتابًا أجمع لهذا كلّه منه. وما منّا إلا مَن كان «الأغاني» عُدّته الأولى في إقامة اللسان وتجويد البيان.

ولقد قرأته كله (وهو بضعة وعشرون جزءًا) ثلاث مرات، واستفدت منه في الأدب واللغة ما لم أستفِد مثلَه من غيره.

والخلاصة أن «الأغاني» كتاب من أعظم كتب الأدب، ولكن لا يجوز الاعتماد على صحة أخباره، ولا يجوز أن يُقَبل منه التاريخ، وصاحبه - على جلالة قدره في الأدب - رقيق الدين سيّئ السمعة بذيء اللسان، لا يوثق بروايته ولا بصدقه. فاقرؤوا كتاب «الأغاني» للمتعة الأدبية ولتقويم المَلَكة البيانية، ولكن لا تصدّقوا كل ما يرويه فيه ولا تعتمدوا عليه.

(فصولٌ في الثقافة والأدب، ص١٠١)

كتاب سرايا رسول الله ﷺ
لأبي تُراب الظاهري

فلمّا قرأتُ هذا الكتاب أحسستُ أنّي فارقتُ دنيا النّاس، وعُدتُ إلى العصْر الذي كان الواحةَ في صحراء التاريخ. إلى عصر الصحابة، إلى الحقبة التي لم يكن لها مثيل في نقائها وصفائها، وفي سُموّها وجلالها، لمْ يسبقها ما يماثلها، وأحسِبُ أنه لن يأتي بعدها ما يُماثلها؛ لأنها ظاهرة لن تتكرّر.

لمّا صار الكتاب في يدي اِنْصرَفت نفسي عنه، وقلتُ: ما لي وله، وما فيه إلا جمع ما في الكتب. وفتحتُه أنظر فيه كالمُكره عليه، فلمّا قطعتُ منه عشر صفحات، حتى نسيتُ نفسي وزماني، وَشعرتُ أني أعيش مع رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، في سراياهم وغزواتهم، فأحسستُ في نفسي بِلذّة روحية لا تُدانيها اللذاذات.

(مقدمات الشيخ علي الطنطاوي، ص٢٨٠)

كتاب الخلاصة

أَجمَع كتاب للرجال هو "الخلاصة" للخَزْرَجي، الذي لخّص فيه كتاب "التذهيب" للحافظ الذهبي، و"التقريب" لابن حجر، و"الإكمال" لابن ماكولا، و"الكمال" للحافظ عبدالغني المقدسي، و"الجمع" لابن طاهر، و"الميزان" للذهبي، وهي أعظم كتب هذا العلم.

(فصولٌ في الثقافة والأدب، ص١٠٥)

كتاب الفرج بعد الشدّة

هل قرأتم كتاب "الفرج بعد الشدّة" للقاضي التنوخي؟ لقد قرأته وعمري إحدى عشرة سنة، ثم قرأته أكثر من ثلاثين مرّة وحفظت قصصه كلّها من كثرة ما أعدت النّظَر فيه، وصحّحت من حفظي الكثير من أخطاء النسخة المطبوعة منه، ولو وجدت له نسخة مخطوطة صحيحة – وقد وُجدت لله الحمد –

لحقّقتُه وأعدت نشره لأنّي صرْت من أعرف الناس به.

فاقرؤوه - على كثرة أغلاطه - تجدوا فيه ما لا تجدون مثله في كتاب آخر من صور المجتمع العباسي ومصطلحات أهله، وأحوال الموظّفين وأوضاع التجّار، وأقلّ ما تستفيدون منه أنه يُهوّن على المحزون منكم حُزْنه حين يرى أنّ مِن الناس مَن أصابه أكثرُ ممّا أصابه.

(الذكريات، ج٢/ ص٣٧١)

كتاب الرسالة المستطرَفة للكتاني

أما الشيخ الكتاني - محمد بن جعفر الكتاني - فقد كان آية في معرفة علوم الحديث، وكتابه العظيم الذي سمّاه (تواضعًا) "الرسالة المستطرّفة". دليل هذا العلم الذي لا أعرف في هذا العصر ولا غيره مَن ألّف مثله، وأحسِب أنه أملاه إملاء. (الذكريات، ج١/ ص١٠٤)

كتاب مقامات الحريري

وكان المَثَل الأعلى لشادي الأدب - لمّا بدأنا النظر في الأدب - مقامات الحريري، يحرص أساتذتنا على أن نُدمن قراءتها ونحفظ ما نستطيع حفظه منها.

(فصولٌ في الثقافة والأدب، ص١١١)

كتاب الوافي بالوفيات

وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي أحد أئمة القلم والأدب في عصره، ومؤلف الكتاب الكبير «**الوافي بالوفيات**»، الذي يُعَدّ من أجمع كتب التراجم.

(فصولٌ في الثقافة والأدب، ص١١٤)

كتاب الصاحبي

و«**الصاحبي**» هو من أوائل ما قرأت من الكتب، ألّفه أحمد بن فارس، وسمّاه كذلك تقرّبًا إلى الوزير صاحب بن عبّاد. وكان واحدًا من اثنين هما من عباقرة علماء اللغة، وكانا في عصر واحد، أحمد بن فارس هذا وابن جِنّي.

(فصولٌ في الثقافة والأدب، ص١٥٨)

أجمل كُتُب الخواطر

فإن كل متعلِّم تخْطُر على ذهنه إذا قرأ كتابًا، أو سمع حديثًا، أو تأمّل في الوجود، خواطر إنْ قيّدَها وحبسها بَقِيَت ذِكْرًا له، وذخرًا للنّاس، وإنْ أهملها لحظة مرّت كما يمرُّ سرب الطير أمام الصيّاد، يغفل عنه لمحة فلا يستطيع أنْ يصل إليه أبدًا.

ولقد عني العلماء والأدباء قديمًا وحديثًا بتقييد هذه الخواطر، ومن أجمل ما قرأتُ للقدماء من ذلك الكتاب العظيم للإمام العظيم (صيد الخاطر) لابن الجوزي، ومن أجمل ما قرأتُ للعصريين (شوارد) لعبدالوهاب عزّام. (مقدمات الشيخ علي الطنطاوي، ص١٣٣)

كتاب قواعد اللغة العربية

كان مقررًا علينا في أول المدرسة المتوسطة كتاب «قواعد اللغة العربية» لحفني ناصف، الأديب العلامة، ولإخوانه الذين لا يقلّون عنه. كنّا نقرؤه في السنة التي تلي الشهادة الابتدائية، وكنّا نفهمه، وكنّا نحفظه. فكم من الأساتذة الكبار مَنْ يحفظه الآن؟ إنّ هذا الكتاب -على صِغَره- يكفي مَن أحاط به فلا يحتاج معه إلى غيره، وإنْ كان كالطعام المركّز الكثير الفوائد ولكنّه صعب الهضم، الذي لا تقبله إلا المِعَد القوية والأجسام الصحيحة. (فصولٌ في الثقافة والأدب، ص١٧٦)

كنّا في سنة ١٩٢١ نقرأ في الصف السابع (أي السنة الأولى المتوسطة) كتاب "قواعد اللغة العربية" لحفني ناصف وإخوانه، ونحْفظه ونؤدّي الامتحان فيه، بل نُدْخِل بين كل صفحتين منه صفحتين نكتب فيهما ما نضمُّه إليه ممّا نستفيده من دروس أساتذتنا. هذا الكتاب لو وعاه أستاذ العربية ووعاه الأديب واقتصر عليه لكفاه، فكم الذين يعرفونه من الطلاب الآن؟

(الذكريات، ج١/ ص٣٨٧)

كتاب الأعلام للزركلي

وخير الدين الزركلي، الذي صار بعدُ من أركان وزارة الخارجية السعودية، مؤلّف الكتاب العظيم «**الأعلام**»، أحد الكتب العشرة التي يفاخر بها هذا القرنُ القرون السابقات، وكتاب «**شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز**»، وكتب أخرى معروفة.

(الذكريات، ج١/ ص١٦٥)

كتاب الشعر الجاهلي
وكتاب الإسلام وأصول الحكم

لما وصلت مصر -سنة ١٩٢٨- كان قد مرّ على ظهور «**مجلة الفتح**» سنتان، ولكنها استطاعت أنْ تكون - بتوفيق الله- مجلة العالَمَ الإسلامي.

وكان لها مواقف مشهودة في الرد على كتاب «الشعر الجاهلي» لطه حسين، الكتاب الذي جاء بالكفر الصريح والذي شغَلَ مصر عن قضيتها الكبرى (ولعلّ هذا من جُملة مقاصد مَن كَتَبَه، ومَن سَرَقَه كاتبُه منه وهو مارجليوث، ومَن دَفَع إليه أولًا ودافع عنه ثانيًا)، وكتاب «**الإسلام وأصول الحكم**» لعلي عبدالرازق، وهو كتاب أسوأ من الأول؛ لأن الأول فيه الكفر الصريح يراه المسلم فيعرفه، وهذا فيه الكفر المغطّى لا ينتبه إليه إلا النبيه، فينال منه وهو لا يشعر . وقد ثبت أنَّ هذا أيضاً مسروق.

(الذكريات، ج١/ ص٣٣٥)

أديب الأطفال كامل الكيلاني

والأستاذ كامل الكيلاني هو أديب مصري معروف كان من أوائل مَن عُني بأدب الأطفال، ألّف لهم القصص الكثيرة المطبوعة آنق طبع على أجود ورق، ولكنها - مع الأسف - مملوءة بأخبار الجنّ والعفاريت وما يُشبه ما يُعرَض على الأطفال كل يوم في الرائي من "الصور المتحركة"، التي تُسلّي الأولاد وتملأ فراغ وقتهم، ولكني أظنّ أنها تُفسد عقولهم.

وقد طالما تكلّمت في ذلك مع الأستاذ كامل، في دمشق وفي ندوته الأسبوعية المعروفة في مصر، فكان يُدْلي بحجج ويسوق أدلة على أنها تقوّي الخيال، وتُعين على النبوغ في الأدب وفي كتابة القصّة خاصّة، وما اقتنعت بها قال.

(الذكريات، ج٢/ ص٣٠٣)

عالِم لم يعرف الناس قدره

ومنهم الشيخ سعيد الباني، وهو عالِم لم يعرف الناس قدره وكثير منهم نسي اسمه، مع أني أكاد أُفضّله في مصنّفاته على علماء عصره حتى الشيخ جمال الدين القاسمي، على كِبَر أقدارهم وسموّ منازلهم وكثرة مؤلّفاتهم، التي ليس فيها (غالبًا) إلى نقْل أقوال العلماء وجمعها.

أمّا الشيخ سعيد فهو يقرأ النقول ويفهمها ويهضمها (كما يقولون)، ثم يُعطيك خلاصة عنها مكتوبة بقلمه هو، ممزوجة برأيه فيها، مع إيراد ما يُناسبها.

وعندي الآن كتابان له، كتاب اسمه "عمدة التحقيق في التقليد والتلفيق" طُبع سنة ١٣٤١هـ، قدّم بين يديه مقدمات لو أُفرِدَت بالطبع، أو لو أخذتها مجلة إسلامية فأعادت نشرها، لكان للقرّاء منها خير كبير. والكتاب الثاني في "أحكام الذهب والحرير" طُبع سنة ١٣٤٩هـ، في أوّله أيضًا مقدّمات نافعة قد فصّل فيها

القول وأقام عليها الدلائل، كُلّها مما يحتاج الشباب اليوم إليه وأكثرها مما لا يجدون مراجع فيه.

(الذكريات، ج٢/ ص٢٢٢)

رأيي في الكوثري وفي ابن تيمية

سألني سائل: هل قرأت على الكوثري الذي قُلتَ عنه "أستاذنا"، وهل أنت معه في كل ما كتب؟

والجواب: لا؛ ما قرأت عليه، ولكن قلت عنه «أستاذنا»؛ لأني استفدت من علمه، ولأنه كان السبب في طَبع "رسائل الإصلاح"، وهي أوّل ما كتبتُ. ولستُ معه في كلّ ما كتَب ولا مع غيره؛ أنا لا أمشي مع أحد أبدًا مُغْمض العينين، بل آخذ من كل عالِم وأدَع، إلا قول الله وما صحّ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، آخذه كلّه وأسأل الله أنْ يُعينني على العمل به.

والكوثري - كغيره - يُصيب ويُخطِئ، ولكني قدّرتُه لعلمه ولِمَا أحسنَ إليّ، ولم يَجمعني به إلا بضعة مجالس في دمشق، ومجلس في مصر خرجت منه مخالفًا له في كلام قاله عن ابن تيمية ... بعد أنْ تحرّرت من كُرْه ابن تيمية في صِباي بتأثير بعض مشايخي، ثم من الإفراط في حُبّه بتأثير خالي محبّ الدّين وأستاذي كرد علي، ثم العودة إلى الانصراف عنه بتأثير الكوثري، ثم الرجوع إلى الإقبال عليه بتأثير شيخنا بهجة البيطار، ثم تحرّرت من هذا كلّه ونظرت إليه بعين الإنصاف فرأيت عظيمُ مزاياه وواسع علمه، وأنه لو سبَق به الزمان لكان أحد الأئمة المتبوعين.

(الذكريات، ج٢/ ص٤٠٣)

لا أُنكر تأثّري بالمنفلوطي والرافعي والمازني

أنا لا أُنكر أنّي تأثّرت حينًا بالمنفلوطي، وحينًا بالرافعي، وحينًا بالمازني لا سيما في قصة (سانين)، -وهي قصة سيّئة لكاتب روسي ترجمها من قديم عن الإنكليزية ونشرتها سلسلة روايات «**مسامرات الشعب**» من أكثر من نصف قرن-، وحينًا بجبران، ولكن هذا كلّه كان عارضًا، لم يستمر طويلًا، وكنت معجبًا أشد الإعجاب بالرافعي، ولكن تبدّل نظري إليه، وحكمي عليه، وخير ما كتَب «**تحت راية القرآن**» و«**وحي القلم**»، أما ما يسمّيه (**فلسفة الحُبّ والجمال**) في مثل «**رسائل الأحزان**» و«**السحاب الأحمر**» و«**أوراق الورد**» فأشهد أنه شيء لا يُطاق، يتعب فيه القارئ مثل تعب الكاتب، ثم لا يخرج منه بطائل.

(الذكريات، ج٣/ ص٢٣٧)

كنت ولا أزال معجبًا بالزيّات

وكنت معجبًا بالزيّات ولا أزال معجبًا به، وإنْ كان يَحسّ القارئ بأنه يَتعب بتخيّر ألفاظه ورصف جمله، أما زكي مبارك فأحسب أنه صاحب أجمل أسلوب، تقرؤه بلذّة، ولا تكاد تجد فيه فائدة، ولقد قرأت كتابه: (ليلى المريضة في العراق) خمس مرات، وما فهمت ما ليلى هذه؟ أهي حقيقة أم رمز، وهل يصف واقعًا أو يسرد خيالًا؟ ماذا يُريد أنْ يقول، ما عرفت ولا وجدت من عرف، ولكنه على ذلك كلام جميل جميل.

(الذكريات، ج٣/ ص٢٣٧)

لم أرَ درسًا كدرس الشيخ عبدالقادر المبارك

أمّا الأدب فلأني كنت عاكفًا عليه عمري كلّه؛ أقرأ الشعر وأنقده وأفهمه وأحفظ منه الكثير، وقد بقيَت في ذهني إلى الآن بقايا تبلغ مئات ومئات من الأبيات المفردة والمقطوعات، وبعض القصائد المطوّلات، لا أزال أحفظها وأرويها. ولي في شرحه للطلاب طريقة قلّ اليوم سالكوها لعلّي استفدتها من اثنين: من الأستاذ أحمد الإسكندري لمّا كنت أحضر دروسه في دار العلوم العليا (التي صارت تُدعى اليوم كلية دار العلوم) من ستين سنة كاملة، والشيخ عبدالقادر المبارك الذي لم أرَ فيمَن قرأتُ عليه (وكنت تلميذًا له)، ولا فيمَن رافقتُه في التدريس (وكنت زميلًا له) مَن كان في درسه حياة كحياة درس الشيخ المبارك.

(الذكريات، ج٨/ ص٢١٢)

الأديب اللغوي العَروضي
عِزّ الدين التنوخي

عِزّ الدين التنوخي الأديب العالم اللّغويّ العَروضي الذي جمع من المزايا ما لو وُزّع على عدد من النابغين لخلد به ذكرهم.

الأستاذ عزّ الدين كان دائمًا مع الشيخ بهجة، وقد لزمتُهما مدّة طويلة واستفدت منهما. والأستاذ عزّ الدين التنوخي لم يُعطَ حقّه من الكتابة عنه ومن دراسة أدبه، فقد كان سبّاقًا إلى أمور كثيرة، من ذلك: ما ترونه الآن أو ما رأيتموه قبل قليل في الرائي (التلفزيون)، هذا البرنامج الذي يُصوّر حياة الطلبة في إيطاليا (وقد نسيت عنوانه)، هو مقتبَس من كتاب ترجمه من قديم الأستاذ التنوخي، كتاب لم أرَ إلى الآن كتابًا أجود منه في وصف حياة الطلاب ومشكلاتهم، وأفراحهم وأتراحهم وصلاتهم بأساتذتهم وبأهليهم، هو كتاب "قلب الطفل". ترجَمه الأستاذ التنوخي -رحمة الله عليه- من قديم وطُبع في جزأين كبيرين،

ولكن لغته أعلى من أنْ تصل إليها أفهام التلاميذ، وكنت قد استأذنته في أنْ أُسهّل عبارته وأنْ أكتب قصصه بأسلوب أقرب إليهم وأسهل عليهم، فأذِن لي، ثم توفّاه الله وضَعُفت همّتي عن العمل.

فلو أنّ أحد الأدباء الذين يُحسنون الكتابة للتلاميذ يستأذنون ورثة الأستاذ التنوخي ويُعيدون كتابته بأسلوب سهل قريب؛ ليُقدّموا بذلك للتلاميذ أكبر هدية فكرية.

(الذكريات، ج٤/ ص٣٨٧)

أوّل معرفتي بأبي الحسن الندوي

لقد كانت أول معرفتي بأبي الحسن من كتابه: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟" لمّا رأيت هذا الكتاب لم أكن أعرف مؤلّفه فقلت: مَن هذا الباحث الهندي الذي يَكتب بمثل هذا الأسلوب العربي النقيّ ويُحيط بأحوال المسلمين هذه الإحاطة؟ ثم علمت أنه هندي المولد ولكنه عربي الأرومة، وكم من العرب الأقحاح الذين عُرفوا بألقاب فارسية أو أعجمية.

ولو أنّ أحدكم وضَعَ مخطّط بلاد فارس وقرأ أسماءها لم يجد بلدًا إلا ومنه علماء وأدباء كثير ملأت أسماؤهم كتبَنا واستقرّت في أذهاننا: التبريزي، والشيرازي، والقَزويني، والجُرْجاني، والهَمَذاني، والرّازي (نسبة إلى الري، وهي قرب طهران)، والطَّبَري (نسبة إلى طبرستان، أمّا النسبة إلى طبريّا فطَبَراني)، والشَّهْرسْتاني، والنّيْسابوري، والإسفراييني، ومَن لستُ أُحصيهم عدًا، ومِن هؤلاء كثير من العرب الخُلّص. وحسبكم بمؤلف «الأغاني» الذي يُدعى الأصفهاني، وهو أموي

مرواني صريح النسب من خلاصة العرب.

ولقد جمعتُ أسماء هؤلاء لأضعها في كتاب، ثم علمت أنّ أحد الأدباء قديمًا ألّف كتابًا في العرب الذين لُقّبوا بألقاب العجم، ولم أرَ الكتاب ولم أعرف مؤلّفه، فمن كان عنده علم به فليتفضّل وليُخبرني.

وكنت أحسب أنّ «النَّدْوي» لقَب أسرة يجمع بين أفرادها النسب، وكنت أسأل: ما قرابة السيد سليمان الندوي (الذي كان من أعاظم مَن كتب في السيرة) والسيد مسعود الندوي (محرّر مجلّة "الضياء"، إحدى المجلات الإسلامية الواعية) والسيد أبي الحسن؟ ثم علمتُ فيما بعد أنّهم لا يَجمع بينهم النسب، وإنما يجمع بينهم العلمُ والأدب، وهذا المعهدُ الذي ينتسبون إليه.

(الذكريات، ج٨/ ص٨٩)

ملتقطاتٌ متفرّقة



العجيبة الثامنة

عجائب العالم القديم سبع: أهرام مصر، وحدائق بابل، وبقيّة السبعة التي تعرفونها.

وهي عجائب حقًا، ولكنها هياكل شيّدت من حجارة قُطعت من صخور الجبل أو آجُرّ جُبِلَ من تراب الأرض ونضج على جَمْر الأفران، وهذه العجيبة الثامنة من عمل الأذهان.

تلك تحف من عمل السواعد القوية والأيدي الصَّنَاع، وهذه من عمل الفكر الخالص والقرائح العبقرية...

إنّها كتب لو جُمعت لبُني منها هرم صغير أو لشيّد برج هائل.

المكتبة الإسلامية هي عجيبة العجائب، ذهب جُلّها ولم يبقَ منها إلا قُلّها، وهذا الذي بقي هو الأقل الأقل، وهو - على ذلك - شيء عظيم.

(فصول في الثقافة والأدب، ص٨٩)

الأولاد الجَهَلة

وبيعت مرة تَرِكة عالم في دمشق بالمزاد، وكانت عنده كتب كثيرة، فجرّد أولاده (وهم جَهَلة) الكتب المطبوعة المجلّدة فاحتفظوا بها ثم أشعلوا النار بالباقي.

وبينما كانت النار تأكل هذا الكنز الذي لا يُقدّر بثمن رأوا بينها كتابًا فيه صور ملوّنة أعجبتهم، فسلّوه من وسط اللهب وقد احترق طرفه، وعرضوه على الورّاقين، فإذا هو نسخة من "عجائب المخلوقات" للقَزْويني مكتوبة من أكثر من أربعمئة سنة، ميزتها أنّ فيها صورًا ملوّنة مذهّبة كأنما صُوِّرت الآن، لها قيمة فنية لا تُقدّر، فباعوه بمئة ليرة (يوم كانت للّيرة منزلتها)، وباعه الذي اشتراه للمتحف البريطاني بألف ومئتَي ليرة.

(فصول في الثقافة والأدب، ص٩٢)

مكتبات الأندلس

ولّما دخلَ الإسبان الأندلس أحرقوا مكتباتها، حتى صار ليلها نهارًا مما صعد منها من اللهب. وحسبكم أن تعلموا أنّ واحدة من مكتبات قرطبة كانت فهارسُ دواوين الشعر فيها - كما يقول ابن خلدون - أربعة وأربعين دفترًا كبيرًا.

هذا عدا عما أصابها من النكبات الفردية، من التحريق والتخريق والتمزيق والتغريق، حتى لم يبقَ من هذه المكتبة إلا الأقل الأقل، وهذا الأقل لا تزال المطابع في الشرق والغرب تطبع منه من مئتي سنة إلى الآن، ولم تطبع إلا بعض هذا القليل الذي بقي.

(فصول في الثقافة والأدب، ص٩٣)

مكتبات رأيتُها

ومن أكبرها مكتبة أحمد تيمور باشا الذي تعقّب كتب التاريخ خاصة، فكان يشتري الكتاب منها بوزنه ذهبًا إن لم يستطع شراءه بأقلّ من ذلك. ومكتبة أحمد زكي باشا (وكلا المكتبتين في دار الكتب المصرية الآن والحمد لله). ومكتبة عبد الحي الكتّاني في المغرب، وهي من أغنى الكتب في التاريخ. ومكتبة أنستاس الكرملي، وفيها كثير من المفردات ليس لها ثَوَان. ومكتبة صديقنا إسعاف النشاشيبي رحمة الله عليه وعلى كل من ذكرت، هذه المكتبة - على كبرها واتساعها - لا يكاد يوجد فيها كتاب واحد يخلو من فهارس وتعليقات، رأيتُ كثيرًا منها.

(فصول في الثقافة والأدب، ص٩٧)

من الترَف العقلي

ورأيت من قديم في المكتبة العربية في الشام كتابًا فيه جداول أربعة أو خمسة، في الجدول الأول كتاب في الفقه مثلًا، وفي الثاني نحو وصرف، وفي الثالث تاريخ، وفي الرابع بحث مكتوب بلسان الترك، ثم إذا قرأت السطر كلّه معًا متجاوزًا حدود هذه الجداول جاء معك كتاب آخر فيه علم آخر.

(فصول في الثقافة والأدب، ص١١٢)

طريقة الأجداد

ولستُ أقول: دعوا هذه العلوم لا تُقرئوها التلاميذ، ولكن أقول: إن هذا الخلط بين العلوم الكثيرة يؤدّي إلى إضاعتها كلّها، وهذا سرّ ما نشكوه من ضعف الطلاب في مصر والشام والعراق في اللغة، وهي أداة العلم كلّه، وما نلمسه من عقم القرائح وفَقْد المخترع والباحث.

ولو أنّا رجعنا إلى طريقة أجدادنا الذين كانوا يتعلّمون عِلْمين اثنين أو ثلاثة، فإذا أحسنوها أخذوا في غيرها، لكان أجدى علينا.

(فصولٌ في الثقافة والأدب، ص١٤٣)

الإقبال على العربية

إنّ العالم الإسلامي كلّه مستعد للإقبال على العربية وتَعلُّمها إنْ جئناه باسم الدين، أمّا إنْ جئناه باسم القومية العربية فلن نجد خيرًا.

ولو سنَحَت الفرصة أيام السلطان سليم حين أراد أنْ يَتخذ العربية لغة رسمية للدولة، لم تتم إرادته، ولو تمّت لكان الأتراك كلّهم اليوم عربًا.

ولو أنّا عرَفْنا لغتنا ونشطنا لخدمتها، وذهبنا نُعلّمها هؤلاء الطلاب الذين يريدونها، لصار العالم الإسلامي كلّه ينطق العربية في مئة سنة فقط.

وفي عشرات المدارس في الهند علماء بالعربية قلَّ أنْ

تجد في مصر والشام من يُدانيهم.

ولكن العربية - مع الأسف - لغة أضاعها أهلوها وأهملوها، فذلّتْ وقلّتْ وهي خير اللغات، وعَزّت وكَثُرَت لغة لا تصلح خادمًا لها حين سَمَت بها هِمَم أبنائها. (فصولٌ في الثقافة والأدب، ص١٥٣ - ص١٥٥)

العربية في خطر

لقد كدنا نجهل لغتنا ومن شكّ فليمتحن نفسه، فليفتح لسان العرب وليقرأ فيه عشرة أبيات متتابعة من شواهده، من أيّ صفحة شاء، فإن فهمها كلها، واستطاع أن يشرحها، أو فهم نصفها أو ربعها واستطاع أن يشرحه فأنا المخطئ، ومن يرد عليّ فهو المصيب.

أنا لا أطلب أن يكون فينا من يؤلّف مثل الكامل وأدب الكاتب والأمالي، بل أطلب أن يكون فينا من يقرؤها بلا لحن، ويفهم ما فيها بلا شرح. (فِكَر ومباحث، ص١٠)

التجديد الصحيح

والتجديد كما نفهمه (أو كما أفهمه أنا على الأقلّ) لا يكون بقطع الصلة بالماضي، ولا بالخروج على قواعد اللغة وسنن العرب في كلامها، ولا بالدعوة الحمقاء إلى العاميّة، ولا بأنْ نَعْمَد إلى عقود الشعر فنقطع خيوطها وننثر حبّاتها، ونأتي بشيء لا هو بالنثر ولا هو بالشعر، بل أنْ تبقى اللغة عربية سليمة من العِلل، بليغة قوية بعيدة عن الرَكاكة والضعف، ونَصُبُّ فيها بعد ذلك ما شئنا من أساليب جديدة وأفكار جديدة، أي: أنْ نصنع ما صنع أجدادنا في العهد العبّاسي حين ترجموا كتب اليونان والفُرْس فجعلوها عربية، ولم يجعلوا لغتهم من أجلها يونانية ولا فارسية ولا لغة ممسوخة مسْخًا، هي من أصْلِها العربي كالقرد الذي كان إنسانًا فمُسِخَ قردًا أو خنزيرًا.

(الذكريات، ج٢/ ص٣٨٠)

مشكلة النفور من العربية

الضعف في العربية داء وبيل، والكلام فيه طويل طويل، لا تكفي فيه مقالة ولا مقالات، وما أدري لماذا لا تَعْقِد إحدى جامعات المملكة مؤتمرًا للنظر فيه ومعرفة أسبابه، تدعو إليه كبار أساتذة العربية والمشتغلين بها، فيُبحث في أسباب الضعف.

ولستُ ألقي تبعة المشكلة على الطلاب وحدهم، بل ربما كانوا آخر من يُلقى عليهم اللوم، بل السبب أولًا في اختيار الأساتذة ومعلّمي العربية، فإنّ منهم مَنْ لا يُتقنها ولا يكاد يفهم الوسط من نصوصها، فكيف يُعطي من يكون جيبه فارغًا؟!

(فصولٌ في الثقافة والأدب، ص١٧٨)

النفور من النحْو

وسبب هذا التعقيد - فيما أحسب - أنّ النحاة اتخذوا النحو وسيلة إلى الغنى، وطريقًا إلى المال، وابتغوه تجارة وعرضًا من أعراض الدنيا، فعقّدوه هذا التعقيد وهوّلوا أمره، حتى يعجز الناس عن فهمه إلا بهم، فيأتوهم، فيسألوهم، فيعطوهم، فيغتنوا.

وزاد النحو تعقيدًا وإبهامًا وبعدًا عن الغاية التي وضع من أجلها، ما صنعه الرماني من مزج النحو بالمنطق وحشوه به، حتى ما يقدر من بعده على تجريده منه.

فخرج النحو بذلك عن الجادَّة، ولم يعد واسطة لفهم كلام العرب واتباع سبيلهم في القول، بل غدا علمًا مستقلًا معقدًا مضطربًا لا تكاد تثبت فيه مسألة.

(فِكَر ومباحث، ص١٨)

أكبر كُتّاب العربية خمسة

ولكن أكبر كُتّاب العربية خمسة: الجاحظ، لا أستطيع أنْ أنفيه منهم ولا أُبعده عنهم، وأبو حيّان التوحيدي أوَّل قصصيّ مُبتكِر في أدبنا، والغزالي حين يُحلّل النفْس البشرية في "الإحياء"، وابن عربي في «الفتوحات» إذا قسْناه بمقياس الأدب لا بمقياس الدِّين، وابن خلدون في "المقدّمة".

(الذكريات، ج١/ ص٣٩٣)

مظاهر الأدب

والأدب له مظاهر وأشكال أهمها:

«**المذكرات**»: التي يكتبه المرء لنفسه، يدوّن فيها خواطرَه وأفكاره ويصف فيها ما رأى من مشاهد وصور، لا يحتشد لها ولا يحتفل، ولا ينبغي لها إلا أسهل الأساليب وأبعدها عن الصناعة والتكليف. وربما كُتبت القصة الفنية بأسلوب المذكرات، فاستُعملت فيها طرق التحسين والتجميل، وخرجت عن حد البداهة والسهولة كآلام فيرتر.

ثم «الرسالة»: والأصل في الرسالة أن تخاطب فيها الصديق الواحد، لا تتكلف له تكلفك لجماعة القراء. وربما استُعمل أسلوب الرسائل في كتابة القصص كقصة ماجدولين.

ثم «**العرض**» (الريبورتاج)، ثم «المقالة»، المقالة الوصفية، والمقالة العاطفية، والمقالة القصصية، والمقالة التحليلية. وقد نجمت فئة تدعو إلى نبذ أدب

المقالات، مع أن أدب المقالات من أوسع أبواب الأدب، عندنا وعند اللاتين والسكسون وكل أمة من أمم الشرق والغرب.

ثم «**القصة**»: وهي تُقسّم من جهة طولها وقِصَرها إلى أقصوصة، ورواية، ومن جهة شكلها إلى مسرحية وقصة، ومن جهة موضوعها إلى ملهاة ومأساة وملحمة (دراما)، ومن جهة أسلوبها إلى واقعية (يمكن أن تقع حوادثها لا أنها وقعت فعلًا) وخيالية وتحليلية وتصويرية، ومن جهة مصدرها إلى تاريخية واجتماعية وعاطفية... إلخ.

وتشتمل كل قصة على عناصر أساسية، هي: الظروف (الزمان والمكان)، والأبطال، والعقدة.

وقد كان من شروطها أن تُحَلّ العقدة، ولكن من المذاهب الجديدة في الأدب ما يترك العقدة بلا حل؛ ليجهد القارئ ذهنه في حلّها.

(فصولٌ في الثقافة والأدب، ص١٩٦، ١٩٧)

مكتبة الشيخ محمد نصيف

وعنده مكتبة من أنْفس ما عرفتُ من المكتبات، ولقد عرفتُ مكتبات أساتذتنا: محمد كرد علي في دمشق، وإسعاف النشاشيبي في القدس، وأحمد تيمور باشا، وأحمد زكي باشا في مصر، ومكتبة ندوة العلماء في (لكنو) في الهند، ومكتبة الحاج حمدي الأعظمي في بغداد، ومكتبات لا أُحصيها الآن، فوجدتُ مكتبة الشيخ محمد نصيف من أكبرها، وكانت مكتبته مثل مائدته مفتّحة الأبواب لكل قادم.

(مقدمات الشيخ علي الطنطاوي، ص٣٥٧)

ادّعاء الأدب والكتابة

ونحن ما أنشأنا هذا المجمع الأدبي - مجمع اللغة العربية بدمشق - إلا لأنّ طائفة من الناس ادّعت هذا الأدب (وما الدعيّ كالصحيح النَّسَب)، وبعْبعَت بغير علم، وظنّت أنّ كل من أمسك بقلم وخطّ في صحيفة كان كاتبًا تحريرًا. وإذا أنتَ سألته: ما الدليل على أنك كاتب أديب؟ قال: لأني نشرت كيت وكيت في صحيفة كذا وكذا. فإنْ قلتَ: فلماذا نشرت ما نشرت؟ قال: لأني أديب كاتب. فهو أديب؛ لأنه نشر مقالات، وهو قد نشر مقالات لأنه أديب! أمّا أنْ يقرأ كما يقرأ الأدباء ويدرس كما يدرسون، فيُتقن النحو والصرف، ويتمكّن من اللغة ويُدمن النَّظَر في آثار البُلغاء ويُمسك بأسباب البيان، فهذا ما لا يَخطر له ببال.

وكَثُرَت هذه الطائفة وانتشر بلاؤها، وملأت الصُّحفَ بآثارها والمجامعَ والمجالس بأحاديثها،

وطفقَت تكتب في الأدب، ومَا كتابتُها إلا كصلاة حارثة الذي قال فيه الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ حارثةَ بنَ بـــدرٍ
يُصلِّي وهْوَ أكفرُ من حمارِ

(الذكريات، ج٢/ ص٣٨٣)

عيوب برامج الأدب المدرسية

من عيوب هذه البرامج أنها تأتي التلميذ المبتدئ الذي لا عهد له بالأدب، فتفرض عليه أصعب نصوصه وأبعدَها عنه ألفاظًا ومعاني وأسلوبًا وموضوعًا، وكلما ازداد قوة زادته تسهيلًا، حتى ينتهي بدرس الأدب العصري! وهو ضد ما توجبه الفطرة، وما تدعو إليه قواعد التعليم، وما يراه صاحب الذوق السليم.

ومن عيوب هذه المناهج: أنها تهمل الأدب نفسَه

وتُعنى بتاريخه، فتعرّف الطالب بمزايا الأديب ومكانته ونسبته إلى أدباء عصره، ولكنها لا تفرض عليه فهم شعره، ولا تلزمه دراسة نصوص منه دراسةَ لغةٍ وبلاغة وتحليل، ولستُ أدري كيف يدرس الطالب شاعرًا وهو لم يفهم شعره!

وإنْ شرح المدرّسون والمؤلفون بيتًا اقتصروا على تفسير الغريب من ألفاظه، مع أنه ربما فُهمت ألفاظه كلها ولم يُفهم معناه.

(فصولٌ في الثقافة والأدب، ص٢٠١)

احتقار الكتب القديمة

فإنّ مِمّا قويت به الأمم الغربية علينا، وضعفنا به عنها، إجلالها عظماءها، وتدوينها سيرهم، واقتفاءها آثارهم، وذهابها في ذلك إلى أقصى ما يبلغ "الغرور القومي"، فهي تسمو بهم إلى ذروة العَظَمة، وتَسْلُك إلى إحياء أسمائهم شتّى الطرق، فتُنشئ المعاهد على ذكراهم، وتفتح المدارس بأسمائهم، وتنحت التماثيل على صورهم، وتؤلّف الكتب في سيرهم وأخبارهم.

أمّا الشاب العربي فإنّ ينشأ نشأةً يكاد يجهل معها عظماء أمّته، لا يدري ما خبرهم؛ لأنّ أخبارهم متفرقة في بطون "الكتب القديمة"، وقد نشّؤوه على احتقار هذه الكتب، والزراية عليها، والانصراف عنها، ثم علّموه تعظيم "الكتب الجديدة" والإقبال عليها، والإيمان بكل ما فيها... فقرأها وآمن إيمانًا لا شكّ فيه، بأنّ العظَمَة والعلم والخير كلّه إنما هو الذي يأتي من هناك، وأنّ الضَّعَةَ والجهل والشرّ كلّه إنما هو

الذي يأتي من هنا! وأفهموه أنّ تاريخ نابليون ولويس الرابع عشر، هو تاريخ الإنسان الراقي المُهذّب، وأنّ تاريخ الصِّديق والفاروق هو تاريخ البُداة المتأخّرين المتوحّشين!

(مقدمات الشيخ علي الطنطاوي، ص٢٥٢)

بَيْن القارئ والكاتب

والقرّاء أشدّ على الكاتب من المطبعة ومن الناشرين. إنْ جَدَدْتَ لهم، قالوا: إلى متى الجِدّ؟ ألا شيء من هَزْل؟ ألا قليل من أحماض؟ وإنْ هزلت لهم قالوا: ما هذا العبث، وما هذا الكلام الفارغ من المعنى؟ ألا جددت ونحن في أيام جِدّ وجهاد؟

وإنْ سلَكتَ بهم سبل العاطفة ووصفت لهم عواطف القلب وصبوات النّفس، قالوا: يا الله، ويا للأخلاق! أمثلك يكتب في مثل هذا؟ دَعْ هذا للشبّان

المراهقين وتفرّغْ لما ينفع الناس ويُصلح المجتمع.

وإنْ أنتَ تفرّغت لما ينفع الناس ويُصلح المجتمع قالوا: ما هذا؟ أهذا أدب؟ هذا وعظ! إنما الأدب وصف صبوات النفس وعواطف القلب!

ولو كُنّا في بلاد تدع الكاتب يقول ما يشاء (مما لا يقدح في خُلُق ولا دين) لهان الأمر، ولكنّ القراء لا يُسيغون إلا لونًا واحدًا من الكلام، فإنْ بدّلته لهم أو جدّدت فيه لم تحتمله نفوسهم، وأصابهم منه سوء هضم عقلي، يُعقِب نوبةَ ثورة، يصيب الكاتبَ شرارُها أو تحرقه نارها، فهو مضطر أن يكون في عواطفه وآلام قلبه في واد، وفيما يكتب للناس في واد.

{فصولٌ في الثقافة والأدب، ص٢١٩}

مِصْر الأرض العالية

كانت مصر في السنة التي أتكلّم عنها (١٩٣٣) كالأرض العالية، ينزل الماء منها إلى ما ودنَها ولا يَصعد ممّا تحتها إليها، فالمطبوعات في مصر (من كتب ومجلات) تُقرأ في الشام (أي: سوريا ولبنان وفلسطين)، وفي العراق، وفي جزيرة العرب، والمطبوعات في الشام تُقرأ في العراق والجزيرة ولكن قلّما تُقرأ أو تُعرَف في مصر، والمطبوعات في العراق لا تكاد - يومئذ - تصل إلى غيره، أمّا الجزيرة فلم تكن فيها مطبوعات تُذكَر، أمّا المغرب فقد قطع المستعمرون صلتَنا به فلا يصل إلينا شيء من مطبوعاته.

(الذكريات، ج٢/ ص٣٩١)

مَوْت الأزْهر

أمّا "الأزهر" فشيخ طال به العمر ومرّت به الأحداث والغِيَر، أُقيمَ أولًا لغير الحقّ فأبى الله إلا أنْ يجعله للحقّ، وأنْ يكون مثابة العلم حين مرّت بالمسلمين عصور أقفرت فيها من أهلها منازل العلم، منها ما أُغلقت أبوابه وأُطفئت مصابيحه، وبقي الأزهر مفتَّح الأبواب ساطع الأنوار، يقصده الشباب والطلاب من كل بلد من بلدان المسلمين. ثم أدركه الكِبَر ووَنَت منه الخُطا فقصر عن مسايرة الجامعات والمعاهد، فجاؤوا بالأطباء ليُعالجوه، فسمعوا شكواه وعرفوا أوجاعه، ولكنهم (إمّا لنقص في علومهم، أو لغرض في نفوسهم، أو لرغبة أبداها لهم مَن كان إليه أمر انتخابهم واختيارهم) لواحد من هذه الأسباب رأوا أنْ يُريحوه بالسمّ يدسّونه له في الدواء، فإذا الأزهر الذي بقي أكثر من ألف سنة يَحمل مشعل العلم فيضوّئ للسالكين السبيل، والذي أُقيَم بأموال الأوقاف التي وقفها نفرٌ من المسلمين لتعليم أولاد

المسلمين، والذي كان فحل الجامعات؛ لأنه الجامع وهي جامعات... إذا الأزهر الذي يَجُرّ وراءه أمجادَ عشرة قرون تكسّرت أمواجُها على جدرانه كما يتكسّر عاتي الموج على صخور الشاطئ، فيقعد الموج ويبقى الجدار قائمًا، إذا الجامع الأزهر المتفرّد وحدَه بتلك المزايا قد مات وهو كامل الأعضاء واقف على قدميه، وإذا هم قد أقاموا مكانه جامعة لا تمتاز عن أي جامعة في الدنيا، بل تكاد تقصر عن كثير منها!

كان الأزهر للدّين والدنيا، فجعلوه للدنيا، وكان لأبناء المسلمين يتعلّمون فيه دينهم أولًا، لأنه بُني بأموال المسلمين بدافع من الدين لرضا ربّ العالمين، فصار... وأنتم أدرى بما إليه صار.

{الذكريات، ج٨/ ص٩١}

الأديب الحقّ وأديب المجالس

مِنْ الأدباء مَنْ كنتُ أقرأ له فلا أبتغي بلاغة ولا لَسَنًا ولا بيانًا إلا وجدت عنده فوق ما أبتغي، فأتخيّل شخصه وأتوهّمه على أوفى ما يكون عليه المتفوّه اللسِن، ثم ألقاه فألقى الرجل الساكت الصَّموت الذي لا يكاد يتكلّم حتى تكون أنت الذي يسأله ويدفعه إلى الكلام، وإذا تكلّم أخفى صوته ولطّف حروفه حتى لا يُسمَع منه ولا يُفهَم عنه.

ومِنْ الأدباء مَنْ ألقاه في مجلس فأجد المحاضر الفيّاض الذي ينتقل من نكتة إلى نكتة ومن قصّة إلى أبيات من الشعر، فيبتدع لها المناسبات ويلقيها بصوت قوي، ويتكئ على الحروف ويعظّم مخارجها، فأُكبره وأعظمه وأسأله أنْ يكتب مقالة أو يُنشئ فصلًا، فيفرّ منه فرارًا ويسوّف ويعتذر... فإذا أُحرِجَ وكتب جاء بشيء هو أشبه بسفرة المُسَحِّر، فيها من كل طعام لقمة، ولكن الحلو مع الحامض والحار مع البارد، وكل طعام مع طعام.

أساليب الكُتّاب الأقدمين

وأساليب الكُتّاب الأقدمين أربعة:

أسلوب يُحاول صاحبه أنْ يَنقُل إلى نفسك ما في نفسه هو بأصحّ عبارة يَقدر عليها وأوضحها، لا يقصد إلى تجميلها ولا إلى تحميلها ما لا حاجة بها إلى حمله، يبتغي فيها الإيجاز ولا يَحرص فيها على المجاز، وهذا هو الترسُّل، أسلوب ابن المقفّع. وعلى طريقه مشى كُرد علي، وشكيب أرْسلان، ومحبّ الدّين الخطيب، وأحمد أمين.

وأسلوب يُجمّل العبارة التجميل المقبول، ويأتي معها بما يُقاربها وما يُناسبها من طريف السِّيَر وغريب الخبر، وربما ابتعد بهذا الاستطراد عن المعنى المراد فضلَّ عنه أو نسيه، أو رَجَع إليه بعدما ابتعد عنه، وهو يَخرج بك من معنى إلى معنى ومن فكرة إلى فكرة، حتى لا تدري ماذا كان عنوان المقال، وما هو الموضوع الأصلي للكلام، ولكنك لا تَملّه ولا تضيق به، وهذا هو أسلوب الجاحظ.

وأسلوب يعتني بالعبارة مثل عنايته بالفكرة، بل ربما زاد عليها فأضاع المعنى لتجميل المبنى، يَقرِن بالكلمة أختها أو بنت عمّها، ويَحشر معها من الأبيات ما يؤيِّدُها فيختلط النثر بالشعر، وتَحسّ حين تقرؤه بأنه إلى التكلّف والصناعة أقرب منه إلى الأدب المطبوع، وهذا هو أسلوب ابن العميد.

وأسلوب يجعل العبارة وحدها هي المقصودة، يَصُفّ صاحبه كلامًا حلوًا ولو كان خلوًا من المعاني، مُسِخَت فيه الأفكار ألفاظًا والصور كلمات، يُفكّر صاحبه بيده لا برأسه، قد يُثير فيك العجب من دقّة صنعته أو الإعجاب ببارع زخرفته، لكنه لا يُثير في ذهنك فكرة، ولا يَبْعث في قلبك عاطفة، فهو لوحة فسيفساء جامدة لا طاقة زهر، تمثال حسناء من الشمع لا الحسناء نفسها، وهذا هو أسلوب الصّاحب بن عبّاد والقاضي الفاضل، الأسلوب الصناعي الذي بلغ الغاية في "مقامات الحريري".

وهؤلاء هم الكُتّاب الذين أُوْلِعَ بهم أساتذة الأدب

في المدارس، والذين وضعوا لهم المناهج وحدّدوا لهم الموضوعات. وما هؤلاء بأعظم كُتّاب العربية، وما أسلوب ابن العميد والصّاحب والقاضي الفاضل وابن الأثير (صاحب المثل السّائر) بالأسلوب الذي يَصْلُح قدوة للطُّلاب، فضلًا عن "مقامات الحريري" التي كانت تُعدّ - يومًا - النموذج الأكمل للأسلوب الأجمل!

هذا على ما فيها من براعة في اللعب بالألفاظ كلعب السّحَرة في "السيرك"، وعلى أنّ كتاب "المثل السّائر" أجود كتب البلاغة، لولا غلاظة صاحبه واستشهاده المملّ برسائله وكتاباته، ولولا طول لسانه وشتْمه الناس بلا سبب.

(الذكريات، ج١/ ص٣٩٢)

ليس العيب في الكُتُب الصفْراء

عليكم بكتبكم، لا يُزهّدْكم بها ويَصْرِفْكم عنها عداوةُ أقوام لها وسخرهم منها، ونبزهم إيّاها بالكتب الصفْراء، فما في الصُفْرة عيب والذهب أصفر مُذ كان الذهب، ولكن العيب أنْ نكون عونًا للعدو على أنفسنا.

ولقد رأى العدو عَظَمة المكتبة الإسلامية فحسدَنا عليها، فعمِلَ على صرْفنا عنها.

(فصولٌ إسلامية، ص٢٤٩)

سِلاحي قلمي

وأنا من جمعية "المحاربين القُدماء". هل سمعتم بها؟ كان لي سلاح أخوض به المعامع، وأُطاعن به الفرسان، وسلاحي قلمي، حملتُه سنين طوالًا أُقابل به الرجال وأُقاتل الأبطال، فأعود مرة ومعي غار النّصر، وأرجع مرة أمسح عن وجهي غبار الفشل.

قلمٌ إنْ شئت لانَ في يدي حتى ليخشن معه الحرير، وإنْ شئت صلب حتى يلين إلى جنبه الحديد. إنْ أردتُه هديّة نَبَتَ من شِقّه الزهرُ وقَطَرَ منه العطرُ، وإنْ أردتُه رَزيّة حطّمتُ به الصّخر وأحرقتُ الجمْر؛ قلمٌ كان عذْبًا عند قوم وعذابًا لقوم آخرين.

(الذكريات، ج٢/ ص٢٨)

ما كتبتُ قطّ كلمة الباطل

كنت أوّل خطيب بين الشباب يرتجل خطبًا تُثير الناس وتُهيّج الجماهير، وكان لي فوق ذلك قلم إنْ شئته غصنًا من أغصان الجنّة أوْرق وأزْهَر وأنعش القلوب، وإنْ شئته حطبة من حطب جهنم أحرقَ ودمّر.

كنت أقول ما أعتقد، لا أهاب فيه أحدًا، ولا أخشى له مغبّة، حتى حين كبرت وشخت، وضاقت بلساني مسالك القول في أكثر البلدان، وسُدّت أمام القلم صفحات الجرائد والمجلات، صرْت أَسْكت عن كلمة الحق؛ لأني لا أقدر أنْ أقولها، ولكن ما قلت قطّ كلمة الباطل، صرْت أبتعد عن الصدع بالأوْلى أمام مَن بيدهم السلطان، بل أبتعد عنهم، ولكن ما قلت إلى الآن كلمة تُسخط الله، وتُجافي الحق لأسترضي بها سلطان، والمطبوع مما كتبت إلى الآن، وهو تحت أعين الناس، يزيد عن عشرة آلاف صفحة، بل على اثنتي عشرة. يَشْهد لي إنْ شاء الله بما أقول. ولا أزكّي نفسي،

ولا أدّعي العصمة، فالعصمة للرسول ﷺ، ولا أقول إني كامل، ولكن أقول: إني أحرِص دائمًا على أنْ لا أنطق بغير الحق.

(الذكريات، ج٣/ ص١٧٠-١٧٢)

موقف من مواقف الغَيْرة على الدّين

وأنا أُناظر أولًا برفق وأدب، أُحاول أنْ لا أقول كلمة تخدش الخصم أو تجرحه، فإذا صدر منه ما يمسّ ديني أو كرامتي لبسْتُ جلد النمر ونكّبت عن ذكر العواقب جانبًا، ولم أَعُد أُبصر مِن غضبي لديني أو لكرامتي مَن الذي هو أمامي، لا أُبالي أنْ يكون كبيرًا أو خطيرًا.

ولقد كان صِدام مرة بيني وبين الدكتور زكي مبارك، وكانت لي به صلة حسنة وأُقِرّ له أنّه يملك أجمل أسلوب في هذا العصر. فنطَق مرة بكلمة فيها كفر

ظاهر وعدوان على الدّين أثيم، فنبّهته فما انتبه وحذّرته فما بالى، فزاغ بصري ولم أعُد أرى أمامي الأستاذ زكي مبارك بل رجلًا ينال من ديني ومن عقيدتي، فهجمت عليه هجمة مفاجئة بجُمَل تتلاحق كلماتها كرصاص المدفع الرشاش ضعضعَت أركانه، ثم استفاق من دهشته وتمالك بعض نفسه، وقال لي في بعض ما قال: مَن أنتَ؟ وبأيِّ سلاح تنازلني؟

قلت: بسلاحَيْن؛ أولهما: أنّ الحقّ معي، وأني أستنصر الله؛ لأني أُناضل عن دينه وأحامي عن شرعه، والثاني: أني أعرفُك في مصر، وأعرف سلوكك في العراق، ومجالسك بين كاسك وطاسك، فما الذي تظنّه يُخيفني منك ويمنعني من منازلتك: دينك وتقواك؟ سلوكك واستقامتك؟ علمك؟ وقد حقّقتَ كتاب "زهر الآداب" للحُصري، وكنا ندرسه مع تلاميذنا في دمشق فما تمرّ صفحة تخلو من زلّة لك تسقط منها فيُشَجّ رأسك أو تُلوى قدمك، أمْ هذا الكتاب الذي صدّعتَ بذكره الأسماع وجعلتَه معجزة العصر، وقيّدك بمنطقه وحجّته بقيدٍ من حديد لم تملك معه حراكًا، جعلتَ تقفز

من حلوه تصرخ وتهدّد ولا تستطيع أنْ تتحلّل من القيد ولا أنْ تُبرّر الغلط؟ وهل تعتصم إلا بستار مَن سبّ الناس؛ إذ تصول وتجول وحدك وتتوعّد وتهدّد (زَعَم الفرزدقُ أنْ سيقتُلُ مِرْبعًا!) ولو كانت معركة أدبية بيني وبينك لتردّدتُ، وربما خفتك أو تَهيّبتُ لقاءك أو آثرت السلامة من قلمك، ولكنها معركة لله أُدافع فيها عن دين الله، والله يُدافع عن الذين آمنوا، ومَن كان الله معه كان هو الغالب.

واشتد الأمر وتعالت الأصوات ولم يبقَ إلا المواثبة والنقاش بالأيدي، فدخل الزيّات بيننا وأخذه جانبًا يُناجيه. وسمعته يقول له: ما تشوف اسمه طنطاوي، إنه شامي دماغه ناشف وأسلوبك لا يفيد معه، والأزهريون من مدرّسين وطلبة يقرؤون له ويُحبّونه، ولمّا كان الخلاف بينه وبين الشيخ أمين الخولي كانوا كلهم معه. وهو يُحاربك الآن بسلاح الدّين، فما لك ولخصومة أهل الدّين؟

فليّن منه بعض اللين، ثم أقبل عليّ يُكلّمني فقلت:

أنا أُحب الأستاذ وأُقدِّر له سِنّه وسبقه وهو أستاذ معروف، وما بيني وبينه خلاف شخصي إلا هذه الكلمة التي قالها وسمعتموها، إنّ فيها كفرًا لا يجوز لمسلم أنْ يسكت عن إنكاره، فإنْ رَجَع عنها وتبرّأ منها قمتُ إليه الآن فقبّلت رأسه، وإنْ أصرّ عليها فسأتوكّل على الله وأخوض معركة معه ربما أنْسَتْ القرّاء معاركه الأولى مع الأدباء، وما بسيفي أَضرِب ولكن بسيف الشرع.فاعتذر من تلك الكلمة وقال: إنها كلمة سبَق بها لسانه، وراح يؤكّد أنه مؤمن صادق الإيمان وأنه طالما جرّد قلمه للدفاع عن الإسلام وأمثال هذا الكلام، فقلت له: تسمح الآن أنْ أقوم فأقبّل رأسك، ولكن بعد أنْ تسرِّح شعرك المنفوش! فضحك وضحك القوم وانتهت المعركة بسلام.وأنا أعترف بأنّ زكي مبارك أقدم منّي في الأدب قِدَمًا وأثبت فيه قَدَمًا، ولكن إذا جاء الدّين بطَلَت المجاملات وعَزّ مَن كان معه وذلّ مَن كان عليه.

(الذكريات، ج٧/ ص١١١-١١٣)

رسالة للآباء الذين يُغرّبون أولادهم لتعلّم اللغة

فما لنا نولي اللغة الإنجليزية من الاهتمام أكثر مما لها؟

كنت مرة في زيارة الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رحمة الله عليه، فوجدت عنده تاجرًا من تجار الشام المعروفين يُريد أنْ يَبعث بولده الذي لم يُكمِل التاسعة عشرة - وهو شاب عزب- إلى إنجلترا ليتعلّم اللغة فيها.

فحاولت أنْ أُبيّن له مخاطر ما هو مُقدِم عليه، وهو يُجادلني يُصرّ على أنّ الإنجليزية ضرورة له في عمله. فقلت له: ناشدتك الله أنْ تَصْدُقني، وأنا لا أعرفك إلا صادقًا. لو كان في البلد الذي تبعث به إليه مرض سارٍ احتمالُ أنْ يُصاب به عشرة في المئة، أكنت مرسله أم كنت تقول: إنّ الصّحة أثمن من تَعلُّم الإنجليزية؟ فتردّد قليلًا ثم قال: لم أكن إذن مرسله. قلت: فلماذا لا تهتمّ بدين الولد وأخلاقه مثل اهتمامك بصحّته،

واحتمال أنْ يُصاب في دينه ثمانون في المئة لا عشرة؟

واللغة العربية أكمل اللغات ما عرفها التاريخ إلا كاملة، حتى تَعجّب من ذلك أرنست رينان. وهي أوسع اللغات، ولا يغرنّكم أنّ في القاموس المحيط ستين ألف مادة وفي لسان العرب ثمانين ألفًا وأنّ المعاجم الإنجليزية فيها مئات الآلاف؛ لأنّ مثلنا ومثلهم مثل رجل له سبعة أولاد فقط، لكنهم خرجوا جميعًا من صُلْبه وولدتهم امرأته، وآخر عنده مئة ولد ولكنهم لُقطاء وملمومون لمّاً من الملاجئ والشوارع.

لقد قلتُ من قديم كلمة تناقلها الناس وقرّظها وأيّدها أستاذنا عزّ الدين التنوخي، هي أنّ العربية تأتي في الدرجة الأولى، أمّا الدرجة الثانية والثالثة فشاغرتان فارغتان، وفي الدرجة الرابعة الفرنسية والألمانية معًا، أما اللغة الإنجليزية فتجيء متأخرة في المرتبة.

وأنا لا أعرف منها إلا ثلاث كلمات: إذا أردت أنْ أرجو أحداً ذكرت اسم "إبليس"، وإنْ أردت أنْ أُرحّب به قلت له: "ويلكُم"، وإذا سألت عن شيء

قلت للبيّاع: "هَمَج"! وفهمت أنها لغة ليس لها قواعد مضبوطة، وأنّ أكثرها سماعي، وأنّ فيها حروفًا تُقرأ تارة على شكل وتارة على شكل آخر، فهي لغة عرجاء، ولكن يَقظة قومها سيّرَتها في أرجاء الأرض وجعلَتها اللغة الأولى.

(الذكريات، ج٨/ ص٩٣-٩٥)

أيُّهــا الجيــل

وكانت دُروسنا أصعب وبرامجنا أحفلَ وأملأ، وكُنّا مع ذلك أكثر منكم إقبالًا عليها، واشتغالًا بها، ونجاحًا فيها، وكُنّا نقرأ فوقها كثرًا مِن كتب العلم.

ولقد قرأتُ عشرات مِن كتب الأدب واللغة والدِّين وأنا لا أزال في الثانوية.

وكُنّا نؤمّ مجالس العلماء في المساجد وفي البيوت، فنجمع إلى علم المدرسة علوم الدِّين وعلوم اللسان،

ونحفظ مِن بليغ القول ونروي مِن طريف الأخبار الشيء الكثير، كُنّا إذا أردنا التسلية قرأنا قصّة عنتر والملك سيف وحمزة البهلوان، وهي كتب أدب وفروسية وبطولة، لا نعرف هذه المجلات ولا هذه القصص ولا هذه الأفلام، ولم يكن في أيامنا - بحمد الله- شيء مِن ذلك، ما كان إلا المجلات الدسمة النافعة كالمقتطف والهلال (القديمة).

(مِن حديث النفْس، ص٥٣)

أكثر علماء العربية كانوا من غير العرب

ولقد كنتُ أعجبُ حين أقرأ لأبي الحسن - يعني الندوي - فأجد لرجل من الهند هذا الأسلوب البليغ، وهذه الأصالة وهذا الطبع، ثم زال العجب لمّا ظَهَرَ السبب، وعلِمْتُ أنّ أبا الحسن عربي صريح صحيح النَّسب كالأصبهاني مؤلّف الأغاني، والأبيوردي الشّاعر، وهما قرشيان أمويان، والفيروزأبادي

صاحب القاموس، وإنّ خبَر عربيّته متواتر مستفيض في الهند، فمن هنا جاء هذا البيان الذي قلَّ نظيره في هذه الأيام.

وقد يشتغل غير العربي بعلوم العربية، حتى يكون إمامًا فيها، في اللغة والنحو والصرف والاشتقاق، وفي سَعة الرواية، بل إنّ أكثر علماء العربية كانوا (في الواقع) من غير العرب، ولكن من النادر أنْ يكون فيهم مَن له مثل هذا (الذوق الأدبي) الذي تعرفه لأبي الحسن. فلو لم تثبت عربيته بصحة النّسب، لثبتت بأصالة الأدب.

(مقدمات الشيخ علي الطنطاوي، ص١٥٩)

واجـب الشـباب

على الشباب واجب علمي، هو أنْ يبعثوا المكتبة العربية القديمة بحُلل جديدة وأساليب مستحدثة.

إنّ في هذه الكتب الصفراء علمًا جمًّا ولكنه مطمور تحت أنقاض الأسلوب الماضي؛ في كتب الفقه -مثلًا- ما يُستنبط منه القانون الأساسي، والقانون الجزائي، والقانون المدني، والقانون الإداري، وقانون أصول المحاكمات، ولكن هذه الكتب موضوعة على طريقة لا نسيغها اليوم، ولا نألفها، ولا تَصْلُح لنا ولا نَصْلُح لها، وإنْ كانت تَصْلُح كل الصلاح في عهد مَن ألّفوها، فيجب على الشباب أنْ ينقطع منهم فئة إلى دراسة هذه الكتب وتفهّمها ومعرفة ما فيها، واستخلاص موادها العلمية وعرضها بشكل جيد.

إنّ الأساليب – يا سادتي – أزياء، وقد تبدّل الزيّ اليوم، فليأخذ الخيّاط الماهر هذا الثوب القديم وليصنع من قماشه ثوبًا جديدًا، على ألا يُضيع منه خيطًا واحدًا.

إنّ من العار -أيها السادة- أنْ تترقّى أساليب التأليف في كل العلوم ونبقى نحن في علومنا على ما كنا عليه. إنّ الذين كتبوا هذه الشروح وهذه الحواشي وهذه التقارير عُظماء أجلاء؛ لأنهم أنتجوا شيئًا وعرضوه على أحسن شكل يألفُهُ عصرهم، وليس عليهم ذنب، ولكن الذنب علينا نحن الذين لا يؤلّفون ولا يشتغلون ولا يُنتجون، وإنما يعيشون عالة على أجدادهم كهذا النبات الطُفيلي الضعيف الذي يتمسّك بأقدام النخلة الباسقة.

{فصولٌ إسلامية، ص٦١}

هاتوا لي أمثال الشيخين

وكان بطل معركة شقحب شيخ الإسلام ابن تيمية، كما كان بطل عين جالوت هو سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام؛ لأنّ اللسان الصادق يَصنع ما لا يَصنع السنان الصائب إنْ كان ينطق عن إخلاص لله ملأ قلبَه، يُخاطب أقوامًا ملأ الإيمان قلوبهم.

فهاتوا أمثال الشيخين تروا النّصر إنْ شاء الله، فما ذهَبَت عزّة الإيمان في نفوس المسلمين ولكن خَبَتْ نارُها، فهي تحتاج إلى مَن يَنفُخ فيها.

(الذكريات، ج٣/ ص١٥)

ولقد وقعت لي هنا حادثة، سألوني مرة في مقابلة صحفية عن أطرف ما وقع لي في حياتي في التعليم فتحدّثت بها.

هي بإيجاز أنني دخلت وسط المحاضرة (وكان هذا خطأ مني)، فسمعت المدرّس يودّع الطلاب ويوصيهم بخلَفَه (الذي هو أنا) ويسمّيه لهم ويُثني عليه ويمدحه، فأعجبني ذلك منه وتقدّمت خطوتين، فصاح بي: يا زمال (أي يا حمار)، فين داخل؟ تأتي في وسط المحاضرة وتدخل على هذه الحالة من قلّة الأدب! (وأشهد الآن أنّ الحق كان معه). قال: وأظنّ أنك لم تُحضّر درسك، هل تستطيع أنْ تلخّص ما قلته أمس عن البحتري؟ هيّا تكلّم عن البحتري يا زمال!

وأخذت أتكلّم عن البحتري بلغة سليمة ولهجة موزونة وإحاطة بالموضوع، أستشهد في كلّ موضوع بما قاله هو وما قال الناس فيه، وأشرح ما أجيء به

من الشواهد. وشُدِه وتركني أتكلّم عشر دقائق أو ربع ساعة، كانت عيناه فيها مفتوحتين وشفتاه متباعدتين وحاجباه مرتفعتين، هيئةَ المدهوش الذي فاجأه ما لم يكن يتوقّع. حتى إذا وقفتُ وقفة تنبّه فيها ممّا كان فيه، وقال: مَن أنتَ؟ وما اسمك؟ قلت: علي الطنطاوي.

وأنا أدَع للقرّاء أنْ يتصوّروا أثر ذلك في نفسه بعد الذي قاله عنّي والذي سمعه منّي. وخرج الطلاب يتحدّثون بذلك، وشاعَ في البلد، فكانت نكتة تُروى كما كان ذلك دعاية لي.

(المذكرات، ج٤/ ص٤٤)

في كل يوم ينطفئ مصباح؟

أفي كل يوم ينطفئ مصباح، ويهوي نجم، ويموت عالم؟ أين الشيخ بدر الدين الحسني؟ أين السيد محمد بن جعفر الكتاني؟ أين الشيخ عطا الكسم؟ أين مَن قبلهم الشيخ جمال الدين القاسمي؟ أين الشيخ أمين سويد؟ أين الشيخ مصطفى الطنطاوي؟ أين الشيخ الجوبري والشيخ الأيوبي والمعلمي؟ أين مشايخ القُرّاء: الحلواني والمنجّد والعربيني؟ وأين العشرات ممّن فقدنا من العلماء؟ مَن خلفَهم من أولادهم أو من تلاميذهم؟ مَن سدّ المكان الذي أخْلوه؟

مضوا ومضت معهم كنوز العلم، ودُفنت معهم ثروات من المعرفة ما حوتها الكتب ولا حفظتها التصانيف؛ لأن القوم كانوا راغبين عن الكتابة منصرفين عن التأليف. أدمغة عبقرية غذّاها دأب السنين وإحياء الليالي وثني الركب، ثم كان مصيرها إلى التراب! وينابيع عِذاب، ولكن العِطاش انصرفوا

عنها وزهدوا فيها، حتى غاضت في الأرض كما فاضت من الأرض.

مضوا وسيمضي هؤلاء الباقون، فتزوّدوا منهم، ارتووا قبل أنْ يَجِفَّ الينبوع فإنّ أمامكم بيداء قاحلة. اقتبسوا من نورهم قبل أنْ تنطفئ الشعلة فإنّ أمامكم ليلا أَلْيَل. رحمة الله على مَن مضى وللأحياء طول البقاء.

(الذكريات، ج٤/ ص٣٣٨)

المحتـــوى